عَدَتْكَ : جاوزتك، وعَدَاه الأمر يَعْدوهُ : جاوزه. وما عدا فلانٌ أن صنع كذا. وما عن فلان مَعْدًى؛ أيْ لا يجاوزه إلى غيره، ولا يقصر دونه، وعَدَوْتُه عنه : صَرَفته، والتَعَدِّي : مجاوزة الشّيء إلى غيره، وعَدَّيْتُهُ فَتَعَدَّى؛ أيْ تجاوز. وعَدِّ عنه؛ أيْ اصرف بصرك[1].

والحَالُ يذكّر ويؤنّث، وإلاّ فَصُحَ التّأنيث، والمراد هيئته. وقال الجوهري : «الحالَةُ : واحدةُ حالِ الإنسانِ وأَحْوالِهِ»[2].

السِرّ : الّذي يُكْتَمُ، وجمعه أسرار، والسّريرة مثله، والجمع السّرائر، وفي المثل : "ما يَوْمُ حَلِيمة بِسِرّ"؛ يضرب للأمر المشهور، وهي حليمة بنت الحارث الغسّاني[3]، جهّز أبوها جيشًا إلى المنذر بن ماء السّماء[4]، فأخرجت لهم طِيبا في مِركن، فطيّبتهم، فنُسِب اليوم إليها[5].

ومستتر : أيْ مُنْكَتِمٌ؛ تقول : سَتَرْتُ الشّيء أَسْتُرُهُ سَتْرًا - بفتح السّين - في المصدر؛ أيْ غَطَّيْتَه، فاسْتَتَر هو. وتَسَتَّرَ؛ أيْ تَغَطَّى. وجارية

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2421/6. مادة عدا.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1680/4. مادة حول.

(3) هي حليمة بنت الحارث الاكبر ابن أبي شمر الغساني ملك عرب الشام. من بنات الملوك في الجاهلية. وهي المنسوب إليها (يوم حليمة) من أيام العرب، و (مرج حليمة) ببادية الشام وكانت فيه الواقعة، وإنّما نسبا إليها لتحريضها رجال أبيها على القتال في ذلك اليوم، بالمرج، أو لأنها أخرجت لهم مركنا فيه طيب فطيبتهم منه. انظر الأعلام. الزركلي : 270/2.

(4) هو المنذر بن ماء السماء اللخمي أحد ملوك الحيرة، فإن أباه امرؤ القيس ابن عمرو بن عدي، وماء السماء أمّه، وهي بنت عوف بن جشم بن النمر بن قاسط، وإنّما قيل لها ماء السماء لحسنها وجمالها. انظر وفيات الأعيان. ابن خلكان : 358/5.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 681/2. مادة سرر.

مُسَتَّرَةٌ؛ أيْ مُخَدَّرَةٌ. و : ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[1]؛ أيْ حجاباً على حِجابٍ، والأوّل مَسْتورٌ بالثّاني، والمراد كثافته؛ لأنّ قلوبهم في أَكِنَّة، وفى آذانهم وَقْر. وقيل : مَسْتُورٌ بمعنى سَاتِر؛ نحو : ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[2]؛ أيْ آتيا، ورجل مَسْتُورٌ وسَتيرٌ؛ أيْ عفيف، والجارية سَتيرَةٌ[3].

الوُشَاة : جمع واشٍ؛ كغَازٍ وغُزَاة، ورَامٍ ورُمَاة، وهذا الجمع مطّرد في المعتلّ اللاّم. والواشي : الكاذب النمَّام، الّذي يُبلّغ الحديثَ ويكذبُ فيه ويزيّنُه، وقيل : الوُشَاة : النّمّامون النّاقلون للأحاديث للإفساد بين النّاس كاذبين أو غير كاذبين. يُقال : وَشَى يَشِي وِشَايَةً؛ أيْ كَذَب، فهو واشٍ.

قال الجوهري : «وَشَى كلامه : كذب. ووَشَى به إلى السّلطان وِشَاية؛ أيْ سَعَى»[4].

قلتُ : ولعلّه إنّما سمّي وَاشيًا؛ لأنّه يَشِي كلامه؛ أيْ يزيّنه ليُقبل.

الدّاء : المرض، والجمع أدواء، وهو مصدر داءَ الرّجلُ يَداءُ؛ أيْ مرض، وأَدَأَ أيضاً، وقد دِئْتَ يا رَجُلُ، وأَدَأْتَ : فأنت مُدِيءٌ، وأَدَأْتُهُ أنا : أصبته بداءٍ، يتعدّى ولا يتعدّى[5].

---

(1) سورة الإسراء : من الآية 45.

(2) سورة مريم : من الآية 61.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 676/2. مادة ستر.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 6/ 2524. مادة وشي.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1/ 51. مادة دوأ.

بِمُنْحَسِم : أيْ مُنْقَطِع. حَسَمْتُهُ : قطعته، فانحَسَم، ومنه حَسْمُ العِرْقِ. وفى الحديث لمّا قطع السّارق، قال : «**احسِمُوهُ**»[1]؛ أيْ اكووه بالنّار لينقطع الدّم. وفيه : «**عَلَيْكُم بالصَوْمِ فإنّه مَحْسَمَةٌ للعِرْقِ، ومَذْهَبَةٌ للأَشَرِ**»[2]. واللّيالي الحُسُومُ؛ لِحَسْمِها الخيرَ عن أهلها. والحُسَامُ : السّيف القاطع. وحُسَامُ السّيف : طرفه الّذي يُضرب به[3].

---

(1) رواه البيهقي عن أبي هريرة مروعا في السنن الكبرى في السرقة. باب السارق يسرق أولا فتقطع يده اليمني من مفصل الكف ثم يحسم بالنار. ورواه غيره.

(2) قال المتقي الهندي : رواه أبو نعيم في الطب عن شداد بن عبد الله. انظر كنز العمال. المتقي الهندي : 450/8. الأثر رقم 23610.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 5/ 1899. مادة حسم.

التَّفْسِيْرُ

[لا اختيار للإنسان في دفع الحبّ بعد تمكّنه منه]

لمّا أقرّ المحبّ للعاذل، وصدّقه فيما ادّعى عليه، واعتذر إليه من إنكاره أو غير ذلك من الوجوه المتقدّمة، وأخبره السّبب، أخذ الآن يلومه كما لامه هو؛ فقال : يا لائمِي - أيْ يا عاذلي ومفنّدي - في الهوى - أيْ بسبب الهوى الّذي اتّصفتُ به - العُذريّ؛ أيْ الموصوف بكونه من هوى بني عُذرة، الّذين إنْ اتّصف أحد منهم به لم يزل ذلك به، أو يقتله غالبًا، فهو إذًا لا اختيار للإنسان في دفعه بعد تمكّنه منه، ولا قدرة له على إزالته، بل مطلق الهوى كذلك كما قدّمناه في بعض حدوده في تفسير قوله: "أَيَحْسَب الصُبُّ".

وإنّما اختصّ بنو عُذرة بهذا لصدقهم فيه، ورقّة قلوبهم، فهم إذا هَوَوا؛ أيْ إذا أحبّوا، سقطوا ومالوا؛ لأنّ الفؤاد الرّقيق تسرع إمالته، والقلب الغليظ القاسي لا ينفعل لشيء، وكذا كانت : «**الحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، وَالإِيمَانُ يَمَانٌ**». كما رُوينا عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صحيح مسلم وغيره[1]. والمعنى: إذا كان من اتّصف بمطلق الحبّ، لا يُلام فيما يظهر عليه من آثاره؛ لغلبته وعدم اختياره، فكيف من حبّه عُذريّ - الّذي هو أقوى الحبّ وأرفعه - هو أحرى أن لا يُلام مع الإنصاف.

---

(1) سبق تخريجه قريبا.

وقوله : "معذرة منّي إليك"؛ يحتمل أن يكون معناه: هذه معذرة منّي إليك، والإشارة إلى الإخبار بكون هواه عُذريًا، فإنّه لمّا عُلم من حال ذلك الهوى القتّال، كان نفس الانتماء إليه عُذرًا يجب قبوله، سيّما مع الإنصاف كما ذكر. أو يكون معناه: هو مَعذرة؛ أيْ الهوى العُذريّ، أو يكون النّداء تَمَّ، ويبتدئ في الهوى العُذريّ معذرة. ويحتمل أن تكون الإشارة بهذه المعذرة إلى قوله في البيت قبله : "سرَى طيفُ مَن أَهْوَى فَأرّقَنِي"، وهي المعذرة؛ أيْ ما يُعتذر به كما تقدّم في بعض تفاسيرها لغةً. ويحتمل أن يكون المعنى: اقبَلْ أو خُذْ معذرةً منّي إليك، أو أعتذر أنا معذرةً.

قال بعضهم : «ولا يصحّ أن يُقدّر : اعذرني معذرةً[1]؛ لأنّه يصير فاعل المعذرة هو العاذل، ويتنافر مع قوله : "منّي إليك"».

قلتُ : ولا منافرة فيه، وهو على أحد معنيين؛ إمّا أن يكون "معذرةً" مصدرا؛ أيْ اعذرني معذرةً صادرة منّي إليك؛ بأن تقبلها منّي. وإمّا أن يكون منصوبًا على إسقاط الخافض؛ أيْ بمعذرةٍ. أو يُضمّن "اعذرني" معنى اقبَلْ منّي. ويحتمل أن يكون منصوبا بـ "عَذَرْتُك"؛ أيْ عَذَرْتُك معذرةً منّي؛ لأنّك لم تذق مرارة كأس الحبّ أو حلاوته، والمعنيان الأخيران أظهرها، وفي الأوّلين تكلّف، وهي؛ أيْ المعذرة، إمّا ما قدّمنا، وإمّا أن يكون أَمَرَ بقبول المعذرة مجملاً، ثمّ فسّرها بقوله : "لاَ سِرّي بِمُسْتَتِرٍ.." إلى آخره؛ والمعنى: أنّ مَن بلغ إلى أنّ لا يخفى حاله

(1) أيْ على تقدير الزمخشري في تفسيرة للآية ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، الذي أوردناه قبل قليل.

عن الوُشاة، ولا ينقطع داؤه، فواجب أن يُعذَر. و "عَدَتْكَ حَالي" على هذا المعنى اعتراضٌ.

وقوله : "وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ" إنّما قال ذلك؛ لأنّ العاذل هو الّذي استدلّ عليه أوّلاً بأنّه محبٌّ بما ذُكر من الأدلّة من قوله أوّلاً : "أمِن تَذكّر" إلى قوله : "عُدُول الدّمْعِ والسّقَمِ"، فحال الصبّ إذا لم يخْفَ على العاذل، لا سِيّما وهو يدّعي تحقيق ما ادّعاه عليه من ذلك، فالصبّ يقول للعاذل : كفى بدعوتك أنّي محبّ، أن لا تلومني، فإنّ المحبّ لا يُلام، سيّما العُذريّ، فلو أنصفت لم تَلُم، لكنّك لمُتَ، فلم تُنصف. فقوله أوّلاً: "معذرةً منّي إليكَ" على تقدير جهل العاذل بحاله، ثمّ استدرك، وقال : على أنّي لا أحتاج إلى اعتذارٍ، فإنّك زعمتَ أنّك حقّقتَ عليّ أنّي مُحبّ، وذلك كافٍ في عُذرك إيّايْ لو أنصفتَ. وكأنّها استفاقة من الصبّ بعد حيرته من التماس العُذر.

وأمّا قوله : "عَدَتْكَ حَالِي"، فيحتمل أن يريد الدّعاء له، والمعنى : جاوزتك حالي؛ أيْ لا حلّت بك، فالجملة إنشائية؛ استعطافًا منه له، لعلّه يَرِقّ له، فيقبل عذرَه، ثمّ قوله : "لا سرّي.." إلى آخره تأكيدٌ للاستعطاف؛ أيْ أنّه يُحَبّ لك أن ترقّ لحالي، فإنّه بلغ من أمره أن اطّلع عليه كلّ أحد، حتّى الوُشاة الّذين هم أعدائي، والاطّلاع على المصيبة يشقّ على صاحبها، ولو من حبيبه، فكيف بعدوّه، ثمّ زاد في ذلك؛ بأنْ أخبر أنّ داءه غير منقطع، فإنّه لو كان ينقطع، لسهل أمره، لانتظار الفرج.

ويحتمل أن يريد بقوله : "عَدَتْكَ حَالِي" الاستفهام على سبيل الاستنكار؛ أيْ أَعَدَتْكَ، وحُذفت الهمزة للعلم بها، كما قيل في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾[2] في وجه[3]، وعلى هذا التّأويل يكون تأكيدًا لقوله : "وَلَوْ أَنصفتَ لَم تَلُم"؛ أيْ فإنّ حالي لم تَعْدُكَ؛ أيْ لم تَعْدُكَ مُشاهدتها وظهورها لكلّ أحد، فسرّي ليس بمُستتر عن الوُشاة، ودائي غير مُنحسم، أيْ لا يُرجى زواله ولا برئي وإفاقتي منه، فسؤالك بعد هذا عنّي ليس من الإنصاف، وخصوصًا مع دعواك تحقيق أمري.

ويحتمل أن يريد الاستفهام الحقيقي؛ أيْ أَجَاوزتك حتّى جهلتها، وكأنّ العاذل قال حين استفهمه : نَعَم جَاوزتني. فقال الصبّ : خُذْ عِلمها؛ "لا سرّي بمستتر.." إلى آخره.

ويحتمل أن تكون الجملة خبرية؛ أيْ جاوزتك حالي، فأنت لم تُصَب بمصيبتي، حتّى تعلم مقدار ما أنا فيه، ولو أُصِبتَ بها ما عذلتني،

---

(1) سورة الأنعام : من الآية 76.

(2) سورة الشعراء : من الآية 22.

(3) للآية وجهان في التفسير هما :

- **الوجه الأوّل** : على جهة الإنكار على فرعون؛ كأنّ موسى قال له : أو يَصِحُّ لك أن تَعُدَّ عليّ نعمةَ ترك قتلي من أجل أنّك ظلمت بني إسرائيل وقتلتهم؟! أيْ : ليست بنعمة؛ لأنّ الواجب كان ألاّ تقتلني ولا تقتلهم، ولا تستعبدهم.
- **الوجه الثاني** : على جهة الإقرار بالنّعمة؛ كأنّ موسى يقول له : نعم، وتربيتك نعمة عليَّ.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ولعَذَرتني، وقوله : "لا سرّي" على هذا التّقدير جواب سؤال مقدّر؛ كأنّه قيل له : وما حالتُك الّتي استعظمتَها؟ فقال : "لا سرّي.." إلى آخره.

وقال بعضهم : «وتحتمل جملة "لا سرّي.." على هذا الوجه أن تكون تفسيريّة لـ "حَالي"؛ نحو : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا.. ﴾ الآية[1]».

قلتُ : ويحتمل وجهًا آخر لطيفًا؛ وهو: أن تكون الجملة إنشائية؛ دعا على العاذل أن لا ينال مرتبة الصبّ في الحبّ وحالته، لكون الصبّ يرى أنّ مرتبة الحبّ شريفة، فدعا على عاذله فيه أن لا ينالها. وقوله على هذا : "لا سرّي.." إلى آخره افتخارٌ عليه بالرّتبة الّتي نالها من الحبّ، واستلذاذٌ بذكرها، ونكايةٌ له لِما فنّده فيه؛ كقول الكفّار لمّا قال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه : ﴿مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[2]. وكان يكفي في جواب سؤاله : أصنامًا، لكن لمّا علموا أنّه يغيظه ذكرها، زادوا : "**فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**"؛ تشفّيًا منه.

ويحتمل على تقدير الخبر أيضاً وجهًا آخر؛ أيْ أنّ حالتي وصلت إليك، وجاوزتك إلى غيرك، فسرّي غير مستتر عن الوُشاة، فإن كان العاذل منهم، فقد دخل في عمومه، وإنْ لم يكن منهم، فعلمه بحاله أحْرى، لأنّ الوُشاة إذا علموا حال المحبّ، مع أنّه يحترز منهم بقدر إمكانه، فما بالك بمن لا يحترز منهم ذلك الاحتراز، وربّما يفشي له

---

(1) سورة المعارج : من الآية 19. ويقصد الآيات وليس الآية، وهي بتمامها : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.

(2) سورة الشعراء : الآيتان 70 و 71.

سرّه، أو يسمع منه أو يرى ما يستدلّ به عليه، فإنّه لا يجانبه كمجانبة الواشي.

وقال بعضهم : «معنى قوله : "يَا لاَئِمِي في الهَوَى العُذْرِيّ"؛ أيْ اعذرني في الهوى، فلستُ ببدعٍ فيه، فقد استولى قبلي على بني عُذرة، وهم خلقٌ كثير».

قلتُ : ولا يخفى عليك بُعد هذا القصد، وضعف هذا التّفسير، ولو أراد هذا المعنى لقال : فقد استولى على أهل الدّنيا، وما عسى أن يبلغ عدد المحبّين من بني عذرة ممّن اتّصف به من خلق الله[1].

(1) أقول : وقد يُرد على اعتراض الإمام ابن مرزوق – رحمه الله - بأن القصد ليس كثرة المحبّين، وإنّما القصد هو استيلاء الحبّ عليهم حتّى يؤول بهم إلى الموت، وهذا ممّا لم يشتهر به إلاّ بنو عذرة، ولا يشاركهم فيه أحد من خلق الله وإن كثروا في مطلق الحبّ.

[أقوال في نسبة اللائم في الحبّ إلى قلّة الإنصاف]

والمعنى الّذي أشار إليه النّاظم في نسبة اللاّئم في الحبّ إلى قلّة الإنصاف، لكونه لا يقدر على دفعه، قد تقدّم مستوفًى في شرح قوله : "أَيَحسب الصَبّ". وقد قال أرسطو : «العِشْقُ : ضَرُورَةٌ دَاخِلَةٌ عَلَى النَّفْسِ، وَالعَاشِقُ جَاهِلٌ بِمَسْلَكِ الضَّرُورَةِ الدّاخِلَةِ عَلَيهِ»[1].

قال المتنبّي[2] :

فَمَا أَضَرّ بأَهْلِ العِشْقِ أَنّهُمُ   هَوَوا وَمَا عَرَفُوا الدّنْيَا وَما فطِنُوا

وكذا قوله[3] :

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الحبّ[4] حتّى ذُقْتُهُ   فعجبتُ كيفَ يَموتُ مَن لا يَعشَقُ
وَعَذَرْتُهُمْ وعَرَفْتُ ذَنْبي أَنّني   عَيّرْتُهُمْ فَلَقيتُ منهُمْ ما لَقُوا

وهذا المعنى يناسب بعض الوجوه الّتي قرّرناها في "عَذَتْكَ"، على أن يكون إخبارًا مجرّدًا.

وممّا ورد في وصف الهوى بكونه عُذريًّا قول حفص العُلَيْميّ[5] :

---

(1) الذي وقفت عليه من قول أرسطو في العشق هو : «جهل عارض صادف قلبًا فارغًا لا شُغل له من تجارة ولا صناعة». انظر روضة المحبين. ابن القيم : ص 138.

(2) انظر البيت في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 146/1.

(3) انظر البيتين في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 243/4.

(4) المحفوظ : "العشق" بدل "الحب".

(5) ويسمى أيضاً حفص بن عليم، ولم أقف على ترجمته. وانظر البيتين في زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 153/1.

أقولُ لِحِلْمي لاَ تزَعْني عَنِ الصِّبا وَلِلشَّـيْب لاَ تَـذْعَرْ عَلـيَّ الغَوانِيـا
طلَبْتُ الهَوَى العُذريّ حتّى وَجَدْتُهُ وصَـيَّرْتُ فـي نَجْدِيّـهِ مـا كفانِيـا

وفيه أيضاً النّهي عن اللّوم في الهوى؛ لأنّه نهى حلمَه عن ذلك.

النّداء بـ "يا"؛ إمّا لأنّ مرتبة العاذل عند المحبّ البُعد، أو التّنبيه على غباوته؛ للومه في الهوى العذريّ. والتّنكير في "معذرة" إمّا للتّعظيم أو النّوعيّة. وقوله : "ولَو أَنْصفتَ لَم تَلُم" جملة اعتراضية مقوّية لقبول العُذر، ويحتمل أن يكون تذييلاً.

وفي البيت الثّاني الإطناب، لأنّ فيه إفهامًا في قوله : "لاَ سِرّي.." إلى آخره، بعد إبهام في قوله : "حالي"، ولذا قال بعضهم : «إنّه شبيه بالتّوشيع».

وفي قوله : "لا سِرّي" الاستئناف البياني كما تقدّم. قال بعضهم : «أو يكون بدل جملة من مفرد؛ كقوله[1] :

وَالْخِلُّ كَالْمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مَـعَ الصَّـفَاءِ وَيُخْفِيهَـا مَـعَ الكَـدَرِ»

(1) البيت من قول أبي العلاء المعري. وانظر البيت في زهر الأكم. اليوسي : 95/3.

اَلْبَيَانُ

إسناد "عَدَتك" إلى "حالي" من المجاز العقلي، وكذا "مستتر" إلى ضمير "سرّي"، و "مُنحسم" إلى ضمير "دائي". على نظرٍ في هذين.

اَلْبَدِيْعُ

في البيت الأوّل التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق في "العُذريّ" و"مَعذرة". وتجنيس الاشتقاق في "لائِمي" و "لم تَلم".

[حقيقة الجناس المطلق]

وحقيقتُه : «أَنْ يَجْمَعَ الكَلِمَتَيْنِ اشْتِقَاقٌ؛ نحو : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾[1]»[2]. وفي هاتين اللّفظتين ردّ الصّدور على الأعجاز.

---

(1) سورة الروم : من الآية 43.

(2) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 359.

[حقيقة ردّ الصّدور على الأعجاز]

وهو في الشّعر : «أَنْ تكُونَ إِحْدَى الكَلِمَتَيْنِ المُتَكَرِّرَتَيْنِ أَوْ المُتَجَانِسَتَيْنِ فِي آخِرِ البَيْتِ، وَالأُخْرَى فِي صَدْرِ المِصْرَاعِ الأوّل أَوْ حَشْوِهِ أَوْ آخِرِهِ أَوْ صَدْرِ الثَّانِي أَوْ حَشْوِهِ»[1].

نحو قوله[2] :

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ العَمِّ يَلْطِمُ[3] وَجْهَهُ ... وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ

وقوله[4] :

إِذَا المَرْءُ لَمْ يخزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ ... فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَّانِ

وقوله[5] :

سَكْرَانِ؛ سُكْرُ هَوًى وسُكْرُ مُدَامَةٍ ... أَنَى يُفِيقُ فَتَى بِهِ سَكْرَانِ

ومثاله في القرآن : ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[6].

وفيهما أيضاً الطّباق؛ لأنّ "لائمي" مُثبَت، و "لم تَلُم" منفي، وهذا بالنّظر إلى اللّفظ، وإلاّ ف "لَم تَلُم" مثبت، فإنّه جواب "لولا" امتناعية،

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 360.

(2) البيت من قولِ الأُقَيْشرِ. وانظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 109/7.

(3) ويروى "يشتم" بدل يلطم. .

(4) البيت من قولِ امرئ القيس. انظر ديوانه : ص 160.

(5) البيت من قولِ ديك الجن. وانظر البيت في نهاية الأرب. النويري : 109/7

(6) سورة الأحزاب : من الآية 37.

ونفيها إثبات على ما قيل؛ لأنّ المعنى : امتنع عدم اللّوم لامتناع الإنصاف، وامتناع عدم اللّوم لوم. وبعضهم يسمّي ردّ الصّدور على الأعجاز "التّصدير وتناسب الأطراف"[1]، وإنْ جُعل "معذرة" مرفوعًا، وخبره "فِي الهَوَى العُذْرِيّ"، فيكون مِن التّجريد؛ نحو : ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾[2]، وهي هي، وكذا "الهوى" هو نفس "المعذرة"، لا أنّها فيه، ومنه: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[3]؛ أيْ أيسره. وفيه حسن التّعليل في قوله : "الهوى العُذريّ". وفي قوله : "منّي إليك" طباق؛ لأنّ "مِن" لابتداء الغاية، و "إلى" لانتهائها. وفي قوله : "ولو أنصفتَ لَم تَلُم" المذهب الكلامي؛ لأنّه إن استثنى نقيض التّالي، أنتج نقيض المتقدّم، وتقديره بالحَمليّ[4] : أنت لائمي في الهوى العُذريّ، وكلّ لائم فيه غير مُنصف، فأنت غير مُنصف.

ولا يبعد أن تكون جملة "لو.." من التّبديل كما تقدّم في المعاني. وفي قوله : "لم تَلُم" التّجنيس النّاقص؛ لزيادة التّاء في "تَلُم"؛ نحو : ﴿بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[5]، وهذا هو القسم الأوّل من

---

(1) ويسميه بعضهم أيضاً : تشابُه الأطرافِ. وهو : إذا كان التناسب بين أول الكلام وآخره. انظر البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني : 382/2.

(2) سورة فصلت : من الآية 28.

(3) سورة الطلاق : من الآية 4.

(4) أيْ القياس الحَمليّ، وهو: استلزام قضية حملية تسمى النتيجة، من قضيتين حمليتين هما المقدمتان، وتشترك كلّ من المقدمتين بأحد الحدَّين مع المقدمة الأخرى، وبالحدّ الآخر مع النتيجة.

(5) سورة القيامة : من الآية 29 والآية 30.

النّاقص[1]. وفيه أيضاً مراعاة النّظير؛ لجمعه بين "الهوى" و "المعذرة" و "اللّوم" و "الإنصاف"، وقد يقال : الجمع بين "اللّوم" و "الإنصاف" في هذا المقام من الطّباق، وكذا بين "اللّوم" و "المعذرة"، وأمّا نفي اللّوم والإنصاف فمن مراعاة النّظير.

وفي البيت الثّاني في قوله : "عَدَتْكَ حَالي" التّوجيه.

---

(1) التجنيس الناقص يكون على وجهين :

الوجه الأوّل : أن تختلف الكلمتان بزيادة حرف واحد في الأوّل - وهذا الذي ذكره ابن مرزوق - أو في الوسط أو في الآخر.

الوجه الثاني : أن تختلف الكلمتان بزيادة أكثر من حرف واحد.

انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 356 و 357.

[حقيقة التّوجيه]

وهو : «إيرَادُ الكَلاَم مُحْتَملاً لِوَجْهَينِ مُختَلِفَينِ أَوْ أَكْثَرَ»[1]؛ كقول[2] من قال لأعْوَر يسمّى عَمرا:

خَاطَ لي عَمْروٌ قباءْ　　لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءْ

فإنّه يحتمل الدّعاء عليه وله. ومنه قوله تعالى : ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾[3]؛ كما قرّر الزّمحشري في "مُسْمَعٍ" وَ "رَاعِنَا" من الوجوه[4].

وفيه الموازنة بين "سرّي" و "دائي"، وبين "مُستتر" و "مُنحسم"؛ هذا باعتبار المفردات، وباعتبار التّركيب : "لاَ سِرّي بِمُسْتَتِرٍ" موازن لـ "دَائِي بِمُنْحَسِمِ"، وفي كلّ قسم على حدته مراعاة النّظير؛ لمناسبة السرّ والاستتار الدّاء والانحسام. وفيه تجنيس الاشتقاق في "سرّي" و "مُستتر". وفي الجمع بين "السرّ" و "الوُشاة" طباق خفيّ؛ لأنّ الواشي فاضح. وفي قوله : "لا سرّي بمستتر" طباق لفظيّ. ولا يبعد أن يكون في قوله : "عن

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 350.

(2) البيت من قول بشار بن برد. ويتم مقصد هذا البيت بما بعده، وهو قوله :

فأحَاجي النّاسَ طرا　　أَمَديحٌ أم هـجاءُ!

انظر البيت في زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 2/ 234.

(3) سورة النّساء : من الآية 46.

(4) فأما "مسمع"، فقد قال الزمخشريّ بأنّها قول ذو وجهين : الأوّل يحتمل الذم؛ أيْ اسمع منا مدعوًا عليك بلا سمعت. والثاني يحتمل المدح؛ أيْ اسمع غير مسمع مكروهًا. وأمّا "راعنا" فهي أيضاً تحتمل وجهين : الأوّل يحتمل راعنا نكلمك؛ أيْ ارقبنا وانتظرنا. والثاني يحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابّون بها. انظر الكشاف. الزمخشريّ: 549/1 و550.

الوُشاة" نوع من المبالغة، وفيه النّوع الأوّل من الجمع مع التّقسيم[1]؛ فإنّه جمَعَ حاله مجملةً، ثمّ قسّمها بقوله : "لا سرّي.." إلى آخره؛ كقول أبي الطيّب[2] :

حتّى أقامَ على أرْباضِ خَرْشنةٍ[3] تشقى به الرُّومُ والصُّلبانُ والبِيعُ
للسَّبْيِ مَا نَكَحُوا والقَتْلِ ما ولَدوا والنَّهب مَا جَمَعُوا والنّارِ مَا زَرَعُوا

جمَع في البيت الأوّل شقاء الرّوم بالممدوح مُجملاً، ثمّ قسّم في الثّاني. أو يكون الّذي عند النّاظم من التّقسيم المتقدّم في قوله : "فمَاَ لِعَيْنَيْكَ".

(1) الجمعُ معَ التقسيمِ : هو أنْ يجمعَ المتكلِّم بين شيئينِ أو أكثرَ تحتَ حكمٍ واحدٍ، ثمّ يُقسِّمُ ما جمعَ، وهو النوع الذي ذكره ابن مرزوق، أو يقسِّمُ أوّلا ثم يجمعُ، وهو النوع الثاني. انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 335.
(2) انظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 154/7.
(3) الأرباض : جمع ربض وهو ما حولك لا مدينة، وخرشنة : بلد الروم.

الْإِعْرَابُ

يا : حرف نداء للبعيد وغيره.

لائمي : منادى مضاف إلى ياء المتكلّم، وهو منصوب بفتحة مقدّرة في الميم على الصّحيح.

في الهوى : متعلّق بـ "لائمي".

وفي : للسّببية.

والعُذريّ : نعت لـ "الهوى" مخصّص.

ومعذرة : منصوب؛ إمّا على المصدر أو على المفعولية كما تقدّم في التّفسير، أو على الإغراء؛ أيْ الزَمْ معذرةً، وهو إذا انتصب يفيد التّجرّد شيئًا فشيئًا، على ما تبيّن في علم المعاني.

ومنّي : صفة لـ "معذرة"؛ أيْ كائنة منّي، و "مِن" لابتداء الغاية. وبكائنة المقدّر تتعلّق "إليك"، أو بفعل محذوف؛ لدلالة المعنى؛ أيْ: وينتهي إليك، وإذا قدّرت العامل في "معذرة" خُذْ أو نحوه، لم يتعلّق به "إليك"؛ لئلاّ يتعدّى فعل الفاعل المضمر المتّصل إلى مفعوله المضمر المتّصل، وليس ذلك الفعل قلبيًا.

ويصحّ رفع "معذرة"؛ إمّا على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أيْ هذه.. كما تقدّم، و "منّي إليك" على حالهما الأوّل، أو على الابتداء، و "منّي" صفة له، و "إليك" الخبر، ويتعلّق بكون مطلق أو خاص؛ لدلالة السّياق، أو يكون الخبر في المجرور السّابق، وهو قوله : "في الهَوى العُذريّ".

ولو : حرف لِما كان سيقع لوقوع غيره، وهذه أسدّ العبارات فيها، وهي عبارة سيبويه[1]، و "لَم تَلُم" جوابها.

وعَدَتك : فعل ماضٍ، وعلامة التّأنيث، ومفعول.

وحالي : فاعل، ومضاف إليه.

ولا محلّ لجملة "عَدتك.."؛ لأنّها إمّا مستأنفة أو اعتراضية أو إنشائية. ولا : نافية. وسرّي : مبتدأ، خبره "بمُستتر"، والباء زائدة لا تتعلّق بشيء. ويُضعف عمل "لا" عمل "ليس"؛ لتعريف اسمها، ونظير زيادة هذه الباء قوله[2] :

فَكُنْ لِي شَفِيعاً يَوْمَ لا ذُو شَفَاعَةٍ　　　بِمُغْنٍ فَتِيلاً عَنْ سَوَادِ بْنِ قَارِبِ

وعن الوُشاة : متعلّق بـ "مستتر"، وإعراب ما بعده كالّذي قبله.

ولا محلّ من الإعراب لقوله : "لا سرّي.." إلى آخره؛ لأنّه تفسير.

---

(1) انظر الكتاب. سيبويه : 224/4. وتسمى أيضاً حرف امتناع لامتناع، وقال عنها ابن هشام هي أفسد تفسير لـ "لو". وقال عنها ابن مالك : حرف يدل على انْتِفَاء تال، وَيلْزم لثُبُوته ثُبُوت تاليه. انظر مغني اللبيب. ابن هشام : ص 342.

(2) البيت من قول سواد بن قارب الأسدي يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر الحماسة المغربية. التادلي : 78/1. والشاهد في قوله "بِمُغْنٍ".

الْإِشَارَاتُ

[الاستغراق في طاعة الله]

ينبغي للعبد أن يستغرق في طاعة ربّه رجاء أن يكون من المعدودين في أوليائه وحزبه، ولا عليه مِن عذْل مَن عذَله؛ لمفارقة الحال المألوف، والاتّصاف بغير صفة أهل الزّمان وعرفهم المعروف، وليجتهد في إحياء سنن الهدى، واتّباع طريق المهتدين، وإنْ عنّفه في ذلك أحد، فليُعرض عن الجاهلين، قال الله تعالى لأكرم خلقه عليه : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1].

أَعَـاذِلَتي عَلَـى إتْعَـاب نَفْسِـي ورعْيي في الدُّجَا رَوْضَ السُّهَادِ

إِذا شَـامَ الفَتَـى بَـرْقَ المَعَـالي فـأَهْوَنُ فَائِـتٍ طِيْـب الرُّقَـادِ[2]

ففاعل ذلك اشتياقًا إلى مولاه كالمتّصف بالهوى العُذريّ، فإنْ عَذَله جاهلٌ بحقوق الله أو متهاونٌ بها، فليقلْ للجاهل : عَذَرتك معذرةً؛ لجهلك بهذا المقام. وليقلْ للعاصي المتهاون : لو أنصفتَ، لم تَلُم.

---

(1) سورة الحجر : الآية 94.

(2) ينسب البيتان للشريف الرضي ولأبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ التَّيْلِيّ ولابن نباتة ولابن عمه أبي القاسم السّعدي. انظر البيتين في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي: 2/ 453.

[الدعاء لأهل المعاصي]

و"عَدَتْكَ حَالي"؛ إخبار للجاهل وتعليم له بطريق الرّشاد، واستفهام على طريق الإنكار للعالم العاصي، أو دعاءٌ له بالإرشاد على تقدير إسقاط "لا" لا عليه، فإنّه اللائّق بحال الدّعاة إليه، المشتاقون إليه، فإنّه يعلم أنّ رضا الله في ذلك، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي رضي الله عنه : «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا أحب إليك مِمَّا طَلَعَت عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[1].

وقال أبو علي الدقّاق[2] : «خَرَجَ دَاوُدُ عَلَيهِ السَّلاَمُ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ الصَّحَارِي مُنْفَرِدًا، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : يَا دَاوُد مَا لِي أَرَاكَ وَحْدَانِيًا؟ فَقَالَ : إِلَهِي اسْتأْثَرَ الشَّوْقُ إِلَى لِقَائِكَ عَلَى قَلْبِي، فَحَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صُحْبَةِ الخَلْقِ. فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَنِي بِعَبْدٍ آبِقٍ، أَثْبَتُّكَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ شَهِيدًا»[3]. ويُروى : «حَميدًا»[4].

---

(1) رواه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير عن أبي رافع مرفوعا. الأثر رقم 994. وأصل الحديث في الصّحاح.

(2) هو أبو علي الدقاق الحسن بن علي النيسابوري الزاهد العارف شيخ الصوفيه. لسان وقته وإمام عصره كان فارها في العلم متوسطا في الحلم محمود السيرة مجهود السريرة جنيدي الطريقة سري الحقيقة. توفي في ذي الحجة سنة خمس وأربعمائة. انظر طبقات الشافعية الكبرى. السبكي : 329/4.

(3) انظر بغية الطلب في تاريخ حلب. ابن العديم : 3425/7. الرسالة القشيرية. القشيري : 497/2. وفيها "جهبذًا" بدل "شهيدا".

(4) ورد بهذا اللفظ في رسالة الفضل والمنة. البيومي : ص 248.

وكما حُكي أنّ بعض الأكابر[1] مرّ هو وأصحاب له على جماعة يشربون ويطربون، فقيل له : ألاَ تدعُو عَلى هؤلاء المُجَاهرين؟ فقال : «اللَّهُمَّ كَمَا فَرَّحْتَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، أَمْتِعْهُمْ بِهَا فِي الآخِرَةِ». أو كلامًا هذا معناه. فقيل له في ذلك، فقال : «إِنَّهُ إِذَا فَرَّحَهُمْ بِهَا فِي الآخِرَةِ، تَاب عَلَيْهِمْ»[2].

واقتدى هذا السيّد بسيّد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسليمًا، حين قيل له : ادع على دوس. فقال النّاس : هلكت دوسٌ - يعنون إن دعا عليهم - فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللّهمّ اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ**»[3]. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[4].

[الصبر على الدعوة إلى الله]

وقوله : "لاَ سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ.." إلى آخره؛ أيْ ينبغي للمجاهد في الله حقّ جهاده أن لا يخاف فيه لومة لائم، فمهما أمكنه أنْ يدعو إلى الله مَن لم يسلك سبيل المحبّين المطيعين لله؛ كالوُشاة العاذلين في الحبّ ، فليكن دعاؤه إيّاهم لذلك جهرًا لا مستترًا عنهم، وكذلك يوطّن على أن يكون داؤه الّذي يلقى منهم حال الدّعوة لا ينقطع، ولمّا علم الله سبحانه

(1) هو معروف الكرخي.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 265/1.

(3) رواه البخاري عن أَبِي هرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا في الجهاد والسير. بَاب الدُّعَاءِ لِلْمُشْرِكِينَ بِالْهُدَى لِيَتَأَلَّفَهُمْ. ورواه غيره.

(4) سورة فاطر : الآية 45.

وتعالى ما يلقى الدّاعي إليه، قال لنبيّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1]. ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2].

ويحتمل تخريج كلام النّاظم في الإشارات على وجوه، لكن ما قلّ وكفى خير ممّا كثُر وألهى.

❁ ❁ ❁

(1) سورة الأحقاف : من الآية 35.

(2) سورة العنكبوت : الآية 69.

مَحَّضْتَنِي النُّصحَ لكِنْ لَسْتُ أسمَعُهُ   إنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ فِي صَمَمِ
إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْب فِي عَذَلِي   والشَّيْب أبعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

شَرْحُ الْغَرِيْبِ

المَحْضُ : الخالِصُ، مَحَضَه الوُدّ وأَمْحَضَه : أَخْلَصَه. وأصل المَحْض : اللّبن الخالص الّذي لا ماء فيه حلوا أو حامضا، ولا يُسمّى اللّبن مَحْضًا إلاّ كذلك، ورجل ماحِضٌ؛ كلابِن وتامِر. ومَحَضْتُه؛ سقيته المَحْضَ، وكذا الإمْحاضُ. وامْتَحَضْتُ أنا، وكلّ شيء أخلصته فقد أَمْحَضْتَهُ، قال[1] :

قُلْ للغـوانِي أَمَـا فِـيكُنَّ فاتِكَـةٌ   تَعْلو اللّئيمَ بضرب فيهِ إمْحاضُ[2]

ويُقال أيضاً : «مَحَصْت الذّهب بالنّار - بالصّاد المهملة -؛ أيْ خلّصته»[3].

رَجْعٌ إلى المُعجمة : وعربيٌّ مَحْضٌ : خالصُ النّسبِ، الذّكر والأنثى والجميع سواء، ويجوز أن يُؤنّث ويُثنّى ويُجمع، كقَلب وبَحتٍ، وقد مَحُضَ – بالضمّ – مُحُوضَةً : صار حَسَبُه مَحْضاً[4].

---

(1) هذا البيت أنشده كل من ابن بَريّ والكِسَائِيّ ولم يذكرا قائله.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1104/3. مادة محض.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1056/3. مادة محص.
(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1105/3. مادة محض.

النّصح : والنَصاحَةً، مصدر أنْصَحْتُه، وتَعَدِّيه باللاّم أفْصَح، قال الله تعالى : ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾[1]. والاسم النّصيحة. والنّصيح : النّاصح، وقومٌ نُصَحاءُ. ورجل ناصحُ الجيب؛ أيْ تقيُّ القلب. وقال الأصمعي : «النّاصِحُ: الخالص من العسل وغيره، كالنّاصع، وكلُّ شيء خَلَصَ؛ فقد نَصَح». وانْتَصَحَ : قَبِل النّصيحة. ويُقال : انْتَصِحْني إنّني لك ناصح. وتَنَصَّحَ : تشبّه بالنّصحاء. واسْتَنْصَحَهُ : عدَّه نَصيحاً[2].

ولَستُ أَسْمَعُه : أيْ لا أقبله. قال بعضهم : «لأنّ السّماع لازم القبول، فعبّر باللاّزم على الملزوم، وهو من المجاز اللّغويّ».

والمحبّ : اسم فاعل مِن أحبّ، وتقدّم أنّ اسم مفعوله نادر، ولم يُستعمل اسم فاعل الثّلاثي.

والعذّال : جمع عَاذِل، وهو اللاّئم. والعَذْل - بالذّال المعجمة - المَلاَمَة، مصدر عَذَلْتُهُ والاسم العَذَلُ بالتّحريك، وعَذَلَه فاعْتَذَلَ : لاَمَ نفسه وأعتَبَ. ورجل عُذَلَةٌ : يَعْذِلُ النّاس كثيرًا، كَضُحَكَة، ورجل مُعَذَّلٌ؛ أيْ يُعْذَلُ لإفراطه في الجُود، شُدّد للكثرة. والعاذِلُ : العِرْق الّذي منه دم الاستحاضة. قاله ابن عباس[3].

الصّمم : المسدّ في الأذن، يُقال : رجل أصمّ؛ بيّن الصّمم، ومنه صِمَام القارورة : سِدادُها. وصَمَمْتُ القارورة : سددتُها، وأصْمَمْتُها؛ جعلتُ لها صِماماً، وحجرٌ أَصَمُّ؛ أيْ صلب مُصْمَتٌ. ورَجَب الأصَمّ؛

---

(1) سورة الأعراف : من الآية 62.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 411/1. مادة نصح.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1762/5. مادة عذل.

قال الخليل : «سُمّي بذلك لأنّه لا يُسمع فيه صوت مُستغيث، ولا حركة قتال، ولا قَعْقَعة سلاح، لأنّه من الأشهر الحُرم»[1].

اتّهمت، الاسم التّهمة : استَرَبتُ من الرّيب؛ وهو الشكّ. وهو افتعلتُ من الوهم، والأصل اوْتَهَمْتُ؛ أُبدلت الواو تاءً، وأُدغمت في التّاء. واتّهمتُه بذلك. والاسم التُهَمَةُ بالتّحريك، وأصل التّاء واو. ويُقال للرّجل إذا اتَّهَمْتَهُ : أَتْهَمْتُ إتْهاماً، مثل أَدْوَأْتُ إدْواءً. وأتُّهِم الرّجل : صارت به الرّيبة[2].

وانظر هل يحتمل أن يكون ما في النّظم من "تَوَهّمْتُ"؛ أيْ ظننتُ، فيكون المعنى : ظننتُ نصيحَ الشّيبِ غيرَ ناصحٍ، والظّاهر أنّه بعيدٌ تصريفًا ومعنًى.

ونَصِيح : فَعِيل من النّصح، وقد تقدّم تفسيره، وهو الخَالص النّصْح، وقيل : الصّافي في الوصيّة.

والشَيْبُ : والمَشيب واحدٌ. وقال الأصمعي : «الشَيْبُ : بياضُ الشَّعرِ، والمَشيبُ : دخول الرّجل في حدّ الشّيب مِن الرّجال».

وقال ابن السّكيت في قول عَدِيّ[3] فيما قال الجوهري.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1967/5. مادة صمم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2054/5. مادة وهم.

(3) هو عدي بن زيد بن حماد بن أيوب، من زيد مناة بن تميم (.. – نحو 35 ق هـ= .. – نحو 590م). شاعر، من دهاة الجاهليين. كان قرويا، من أهل الحيرة، فصيحًا، يحسن العربية والفارسية والرمي النشاب. وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، اتخذ في خاصته وجعله ترجمانًا بينه وبين العرب. فسكن المدائن. وعلماء العربية لا يرون شعره حجة. انظر الأعلام. الزركلي : 220/4.

وقال غيره: صوابه: عبيد[1]:

تَصْـبُو وَأَنَّـى لَـكَ التَّصَـابِي والرَّأْسُ قد شَابَهُ المَشِيبُ[2]

يَعْنِي بَيَّضَهُ المَشِيبُ، لا خَالَطَه.

وأنشد :

قـدْ رَابَـهُ ولِمِثْـلِ ذَلِـكَ رَابَـهُ وَقَعَ المَشِيب عَلَى السَّوادِ فَشَابَه[3]

فالمشيب على قول الأصمعي اسم زمان، وهو القياس، وعلى القول الآخر مصدر.

والأَشْيَبُ : المُبْيَضُّ الرَّأْسِ، وشَاب رأسه شَيْبًا وشَيبَةً، فهو أَشْيَب على غير قياس، لأنّ هذا الوزن مِن فِعل: يَفْعل[4].

وشِيبُ السَّوْطِ عربي صحيح. و : ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا﴾[5]. تمييز. وقال الأخفش: «مصدر»؛ لأنّ معنى اشتعل شَابَ. والشّيب :

---

(1) هو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدي، من مضر، أبو زياد (.. - نحو 25 ق هـ= .. - نحو 600م). شاعر، من دهاة الجاهلية وحكمائها. وهو أحد أصحاب "المجمهرات" المعدودة طبقة ثانية عن المعلقات. عاصر أمرأ القيس، وعمّر طويلا حتّى قتله النعمان بن المنذر وقد وفد عليه في يوم بؤسه. انظر الأعلام. الزركلي : 188/4.

(2) قال محقق الصحاح للجوهري : قال ابن برى : هذا البيت زعم الجوهريّ أنّه لعديّ، وهو لعبيد بن الأبرص. انظر هامش رقم 1 من الصحاح. الجوهري : 1/ 159. مادة شيب.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 159/1. مادة شيب. والبيت الأخير ينقله أهل اللغة ولا يذكرون قائله.

(4) انظر تاج العروس. الزبيدي : 171/3. مادة شيب.

(5) سورة مريم : من الآية 4.

جمع أَشْيَبَ. والشِيبُ : الجبال عليها الثّلج فَتَشيب به. وشَيْب شائبٌ، كقولهم : لَيْلٌ لائِل، وشَيَّب وأَشَاب الحزن رأسه وبرأسه، وشَيَّبَهُ. وأشاب الرّجل : شاب أولاده[1].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 160/1. مادة شيب.

[ترتيب الشّيب]

وترتيب الشّيب؛ يقال لأوّل شعرة تبدو منه : رأينَا في رأسه شعرةً وراعية وهي الرّواعي، فإن كثر قليلا قيل : شاب، ولا يُقال : شمط حتّى يزيد، والشّمط خلط الشّيء بالشّيء، فإذا اختلط الأسود بالأبيض فهو أشمط، ويُقال : وخطه القتير؛ وهو الشّيب، وآمره وخصّفه ولفّعه وخوّصه إذا استوى بياضه وسواده، ويُقال فيه أيضاً تنصّف شيبه تنصّفًا، ويُقال : لَوَّحَه القَتِيرُ تلويحًا، وأوّل ما يظهر بلغ فيه الشّيب تبليغًا، وثَقَّبَه تثقيبًا، ووَخَزه وَخْزاً، ويُقال : أَخْلَسَ رأسُه فهو مُخْلِسٌ وخَلِيسٌ؛ اختلط سواده ببياضه، وكذا للنبات بعضه أخضر وبعضه يبس، ورجُل خلاسِيٌّ، لمن أحدُ أبويْهِ أَبْيَضَ والآخرُ أسودَ، فإن غلب بياضُه سوادَه، فأَغْثَمُ، ويُقال : تقشّع فيه الشّيب : كثُر وانتشر وخبط في رأسه[1].

أبو زيد[2] : الأشمط؛ من علا بياضه سواده، والمُتَلَفِّع؛ من شاب في نَواحِي رأسه، فإن نتفه، قيل : زَبَقَه يَزْبُقُهُ زَبْقًا[3].

والعَذْل : المَلاَمَة كما تقدّم . وقيل : توبيخ على ما لا يليق بالموبَّخ إذا صدر منه. **والتّهم** : جمع تُهْمَة، وتقدّمت.

---

(1) انظر ترتيب الشيب في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 16/2 و 17.

(2) هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (119 - 215هـ= 737 - 830م). أحد أئمة الأدب واللغة. من أهل البصرة. ووفاته بها. وهو من ثقات اللغويين، قال ابن الأنباري : كان سيبويه إذا قال (سمعت الثقة) عنى أبا زيد. من تصانيفه كتاب (النوادر). انظر الأعلام. الزركلي : 92/3.

(3) انظر المخصص. ابن سيده : 84/1. تاج العروس. الزبيدي : 157/22 مادة لفع.

التَّفْسِيْرُ

[المحبُّ يصمّ عن نصح العذّال]

لمّا كان العاذل إنّما أبدى عذله في صورة النّصح كما قدّمنا في أوّل بيتين من النّظم؛ من أنّه يقول : كفّ عن هذا البكاء لئلاَّ يتفطّن لك الوُشاة، أو لئلاً يتمادى بك الحال إلى الموت، وكان أبغض شيء إلى المحبّ العذل على أيّ حال، كأن قال له هنا : إنّك أخلصتَ في النّصح بزعمك، وأنا لا أسلّم ذلك، سلّمنا أنّه كما ذكرت، لكن لستُ أسمعه منك؛ أيْ سماعًا اهتبلُ وأعملُ بمقتضاه، والمعنى : أتصامم عنه لكوني لا أحبّه، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ ﴾[2]. وقوله[3] :

صُمّ إذَا سَمِعُوا خَيراً ذُكِرْتُ بِه ... وإنْ ذُكِـرْتُ بِشَـرٍّ عِنْـدَهُمْ أذِنُـوا

وقوله[4] :

أُصِمُّ عَنِ الشَّيْءِ الّذِي لاَ أُرِيدُهُ ... وَأَسْـمَعُ خَلْـقَ اللهِ حـينَ أُرِيـدُ

وقوله[5] :

---

(1) سورة فصلت : من الآية 5.

(2) سورة البقرة : من الآية 18.

(3) البيت لقَعْنَب بنُ أمّ صاحِب يهجو بني ضبة حيّ من غطفان. انظر البيت في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 92/7.

(4) وقفت على البيت في تفسير الكشاف. الزمخشري : 76/1. ولم أقف على قائله.

(5) أنشده ثعلب ولم يبين قائله. انظر البيت في زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 96/2.

فأصْـــمَتُّ عَمْــراً وأعْمَيْتُـــه   عـن الجُـود والفَخْـر يـومَ الفِخَـار

ولمّا كان عدم قبول النّصح - لا سِيَّما المحض منه - على خلاف مقتضى العقل، أبدى عُذره في ذلك، فقال : "إنّ المحبّ.." إلى آخره. وكأنّه يقول : وإنّما لم أسمعه، لأنّي محبّ، والمحبّ في صمم عن العذّال؛ أيْ عن عَذْل العذّال، أو يُقدّر : إنّه لمّا قال : لستُ أسمعُه - كأنّ سائلاً سأله إذ ذاك مظنّة السّؤال - فقال : لِمَ لَمْ تَسمعه؟ فإنّ قبول النّصح شأن العقلاء. فأجاب : لأنّي محبّ، والمحبّ في صَمَم عن العذّال. وعلى الوجهين يحتمل أن يكون التّقدير : عن نصح العذّال، فإنّ المحبّ يصمّ عنه، وإن كان نصحًا حقيقيًا. ويحتمل عن عَذْل العُذّال، فإنّ المحبّ يصمّ عنه؛ لأنّه ليس بنصح حقيقةً، وإنْ أشبهه صورةً، بل هو غش أو خديعة أو نحو ذلك. وإنّما التفتَ في قوله : "إنّ المحبّ" لِما قصد من الاستدلال على خصمه، ولا تقوم له الحجّة إلاّ إذا كان شأن كلّ محبّ، ولو قال : إنّي عن العُذّال.. لما قامت له الحجّة، فإنّه يقول له : ولِمَ فعلت ذلك؟ ف «أل» في "المحبّ" للعموم أو لتعريف الحقيقة، وكذا هي في "العُذّال" للعموم؛ أيْ كلّ عاذل.

وقوله : "إنّي اتّهَمْتُ.. إلى آخره"؛ يقول : أَمسِك أيّها العاذل عن نصحك، فإنّ شأني اتّهام كلّ عاذل في الحبّ، ولو كان ممّن لا يتطرّق إليه التّهمة كالشّيب النّصيح؛ أيْ النّاصح الّذي ليس هو من كسب أحد، بل هو مخلوق لله تعالى، فإذا كنتُ أتّهم الشّيب - مع أنّه أبعد في نصحٍ عن التّهم - فكيف لا أتّهمُك أيّها العاذل، فإنّ من الجائز أنْ تخالفني إلى ما نهيتني عنه.

ومعنى كون الشّيب نصيحًا؛ أنّه مُنذرٌ بقرب الأجل وحلول الموت الموجب لاشتغال العبد بما يقرّبه إلى مولاه زُلْفَى، ويورّثه لديه حسن العقبَى، وليس بعد بياض الزّرع إلاّ حصاده، وقد قيل في قوله تعالى : ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[1] : إنّه الشّيب[2].

فالشّيب يقول للمحبّ : اتركْ ما أنتَ عليه من هذا الهوى، واشتغِل بما ينفعُك في أخراك، كصورة ما يبديه العَاذل في نصحه، ولذا تُعاب أحوال الهوى على الشّيخ، كما قال[3] :

أَطَرَبــاً وأَنْـــتَ قِنَّسْـــرِيُّ   والـدَّهْرُ بالإِنْسَانِ دَوّارِيُّ

ومن هنا وطّأ المصنّف إلى الخروج إلى ما قصده من مدح النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الموضع هو "المَطْلَب" عند الطّيبي؛ الّذي هو قبل الخروج، وهو الثّالث عنده من الأماكن الّتي يجب أن يتأنّق فيها الخطيب أو الشّاعر كما قدّمنا[4]، وبلا شك أنّ في إتيان النّاظم به هكذا حسنًا زائدًا ولطافةً بيّنةً، فإنّه خرج عن تشبيبه الّذي هو التغزّل في ذكر الحبّ والعاذل إلى أن خرج إلى ذكر عذل الشّيب، وانتقل به إلى الوعظ.

---

(1) سورة فاطر : من الآية 37.

(2) انظر الكشاف. الزمخشري : 625/3.

(3) البيت من قول العجاج يصف الدهر، وقد ينسبه البعض لرؤبة. انظر البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 275/11.

(4) وذلك في شرح قول الناظم: لَوْلاَ الهَوَى لَمَ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلِ.. إلخ. وانظر هذا كله في الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 390 وما بعدها.

وقوله : "أبعَدُ في نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ"؛ يصحّ أن يكون "أَبْعَدُ" أفعل تفضيل، وهي الرّواية، ويصحّ كونه فعلاً ماضيًا. قال بعضهم : «وعلى الثّاني ينبغي أن يكون "نُصحي"»؛ مضافا إلى ياء المتكلّم.

قال : «والأوّل أحسن؛ لأنّه يفيد أنّ الشّيب أبعد الأشياء في النّصح عن التّهم، فيعمّ نصحه ونصح غيره، وعلى أنّه فعل ماضٍ يختصّ بنصحه، والعام أرجح؛ لكثرة فائدته، فيترجّح الحمل عليه».

قلتُ : ولا أدري من أيّ وجه ينبغي أن يكون بالياء مع الفعل، وبالتّنكير مع غيره.

[أقوال في نصح الشّيب]

وردّ المحبّين على العذّال نصحهم مشهور لدى الشّعراء. وممّا جاء ممّا يدلّ على أنّ الشّيب أبعد في نصح عن التّهم؛ قول قيس بن عاصم المنقري[1] : «الشّيب خِطَامُ المَنِيَّةِ»[2]. وقول أكثم بن صيفي[3] : «الشّيب عُنوانُ المَوتِ»[4]. وقول المُعْتَمِر بن سُلَيْمان[5] : «الشّيب أَوَّلُ مَرَاحِلِ المَوْتِ»[6].

---

(1) هو قيس بن عاصم بن سنان السعدي التميمي، أبو علي (.. - نحو 20هـ= .. - نحو 640م). أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعرًا، اشتهر وساد في الجاهلية. وهو ممّن حرّم على نفسه الخمر فيها. ووفد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ في وفد تميم (سنة 9هـ) فأسلم، ونزل البصرة في أواخر أيامه. وتوفي بها. انظر الأعلام. الزركلي : 206/5.

(2) انظر قوله في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 29/2.

(3) هو أكثم بن صيفي بن رياح بن الحارث االبن مخاشن بن معاوية التميمي (.. - 9هـ= .. - 630م). حكيم العرب في الجاهلية، وأحد المعمرين. عاش زمنًا طويلاً، وأدرك الاسلام. انظر الأعلام. الزركلي : 6/2.

(4) انظر قوله في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 29/2. وفيه بلفظ : الشّيب نذير الموت.

(5) هو المعتمر بن سليمان بن طرخان التيمي الدار، أبو محمد (106 - 187هـ= 724 - 803م). محدّث البصرة في عصره. انتقل إليها من اليمن. وكان حافظًا ثقة. حدث عنه كثيرون منهم أحمد ابن حنبل. له كتاب في (المغازي). انظر الأعلام. الزركلي : 265/7.

(6) انظر قوله في البيان والتبيين. الجاحظ : ص 378.

وقال السّهميّ[1] : «الشّيب تَمهِيدُ الحِمَامِ»[2]. وقال الآخر[3] : «لَوْ كَانَ الشّبَاب فِضّةٌ، لكَانَ الشّيب لَهُ خَبَثاً»[4]. وقال ابن وابصة[5] :

صَدَّت هنيدة لمَّا جِئتُ زائرَها عنِّي بمَطْروفةٍ إنسانُها غَرِقُ

وراعها الشّيب في رَأسي فقلتُ لها كذاكَ يَصفرُّ بعد الخُضْرة الوَرَق

وقال أبو دلف[6] – ونسبها الحصري[7] إلى خالد الكاتب[1] – :

---

(1) هو عَبْدُ اللهِ بنُ بَكْرِ بنِ حَبِيْبِ السَّهْمِيُّ البَاهِلِيُّ البَصْرِيُّ، نَزِيْلُ بَغْدَادَ، مَوْلِدُهُ فِي خِلاَفَةِ هِشَامِ بنِ عَبْدِ المَلِكِ، كَانَ أَحَدَ الفُقَهَاءِ، وَأَصْحَابِ الحَدِيْثِ، تُوُفِّيَ فِي شَهْرِ المُحَرَّمِ، سَنَةَ ثَمَانٍ وَمائَتَيْنِ، وَقَدْ قَارَبَ التِّسْعِيْنَ. انظر سير أعلام النبلاء. الذهبي : 450/9.

(2) انظر قوله في البيان والتبيين. الجاحظ : ص 378.

(3) يروى من كلام الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي.

(4) انظر القول في زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 447/1.

(5) هو سالم بن وابصة بن معبد الأسدي (...- نحو 125هـ=...- نحو 743م). أمير، شاعر، من أهل الحديث، من التابعين. دمشقي، سكن الكوفة، وولي إمرة (الرقة) لمحمد بن مروان، واستمر بها نحو ثلاثين عاما. ومات في آخر خلافة هشام. انظر الأعلام. الزركلي : 73/3. وانظر البيتين في البيان والتبيين. الجاحظ : 198/1.

(6) هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل، من بني عجل بن لجيم (.. – 226هـ= .. – 840م). أمير الكرخ، وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء. وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة. وللشعراء فيه أماديح. وله مؤلفات، منها (سياسة الملوك). توفي ببغداد. انظر الأعلام. الزركلي : 179/5. وتنسب الأبيات أيضاً لمحمد بن حازم ، ولحبيب الطائيّ، ولابن المعتزّ، ولدعبل الخزاعي. وانظر الأبيات في زهر الآداب. القيرواني : 275/2.

(7) هو إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحصري (.. – 453هـ= .. – 1061م). أديب نقّاد. من أهل القيروان. نسبته إلى عمل الحصر. له كتاب (زهر الآداب وثمر الالباب). وله شعر فيه رقة. انظر الأعلام. الزركلي : 50/1.

نَظَرَتْ إِلَيَّ بِطَرْفِ مَنْ لَمْ يَعْذِلِ لمَّـا تَمَكَّـنَ طَرْفُهَـا مِـنْ مَقْتَـلِ
لمَّـا رَأَتْ وَضْـحَ المَشِـيب بِلِمَّتـي صَـدَّتْ صُـدُودَ مُجَانِـب مُتَجَمِّـلِ
فَجَعَلْـتُ أَطْلُـب وَصْـلَها بِتَلَطُّـفٍ وَالشَّـيب يَغْمِزُهَـا بِـأَلاَّ تَفْعَـلِ

وهذا من عذل المَشيب. وقال كشاجم(2) :

وَقَفَتْنِـي مـا بـين حُـزْنٍ وبُـوس وثنَـتْ بَعْـدَ ضـحْكَةٍ وعُبـوسِ
إِذْ رأتنـي مشَـطْتُ عاجـاً بعـاج وَهِـيَ الآبنُـوس بـالآبنُوسِ

وقال آخر(3) :

وَكُنْتُ إِذَا مَا سَرَّحَ المِشْطُ عَارِضِي رَأَيْـتُ سَحِيقَ المِسْكِ بَيْنَ يَدَيَّا
فَصِـرْتُ إِذَا مَـا خَلَّلْتُهَـا بِأَنَـامِلِي تَنَـاثَرَ كَـافُورٌ بِهِـنَّ عَلَيَّـا

وقال محمود الورّاق(4) :

---

(1) هو خالد بن يزيد البغدادي، أبو الهيثم، المعروف بالكاتب (.. - 262هـ= .. - 876م). شاعر غزل، من الكتاب. أصله من خراسان، ومولده بها. عاش وتوفي في بغداد. كان أحد كتّاب الجيش في أيام المعتصم العباسي. وكان يهاجي أبا تمام. وعاش عمرًا طويلاً. شعره رقيق، أكثره غزل. انظر الأعلام. الزركلي : 301/2.
(2) انظر البيتين في زهر الأداب وثمر الألباب. القيرواني : 965/4. والآبنوس نبات.
(3) هو أبو العباس بن علي الإسفرائيني، وقد ذكره صاحب يتيمة الدهر. الثعالبي : 505/4.
(4) هو محمود بن حسن الوراق (.. - نحو 225هـ= ..- نحو 840م). شاعر عباسي مشهور من شعراء القرنين الثاني والثالث المرموقين، وقد ذكر أنه كان مولى لبني زهرة وهو شاعر من بغداد؛ لذلك علق به لقب البغدادي. وأكثر شعره في المواعظ والحكم، وقد اشتهر بلقبين أحدها الوراق والآخر النخاس. انظر الأعلام. الزركلي : 167/7.

فَاجَاكَ مِنْ بَعْدِ المَشِيبِ نَذِيرُ وَالـدَّهْرُ مِـنْ أَخْلاَقِـهِ التَّغْيِيـرُ
فَسَوَادُ رَأْسِـكَ وَالبَيَـاضُ كَأَنَّـهُ لَيْـلٌ تَـدُبُ نُجُومُـهُ وَتَسِـيرُ

وقال القُحَيْفُ العُقَيْليّ[1] :

خَلِيلَيَّ لاَ وَاللهِ مَا قُلْتُ مَرْحَباً لأَوَّلِ شَـيْبَاتٍ طَلَعْـنَ وَلاَ سَـهْلاَ
خَلِيلَـيّ إنَّ الشَّـيْب دَاءٌ كَرِهْتُـهُ فَمَا أَحْسَنَ المَرْعَى وَمَا أَقْبَحَ المَحْلا[2]

وقال رجلٌ من الأزد[3] :

وَلَقَـدْ أَقُـولُ لِشَـيْبَةٍ أَبْصَـرْتُهَا فِـي مَفْرِقِـي فَمَنَحتُهَـا إعْرَاضِـي
عَنِّـي إِلَيْـكَ! فَلَسْـتُ مُنْتَهِيـاً وَلَـوْ عَمَّمْـتَ مِنْـكَ مَفَـارِقِي بِبَيَـاضِ
هَلْ لِي سِوَى عِشْرِينَ عَاماً قَدْ مَضَتْ مَـعَ سِتَّة فـي إثْـرهِنَّ مَـوَاضِ
وَلَقَلَّمَـا أَرْتَـاعُ مِنْـكَ وَإِنَّنِـي فِيمَا هَوَيْتُ وإنْ وَزَعْتِ لمَاضِ
فَعَلَيْكَ مَـا آسْـطَعْتِ الظُّهورَ بِلمَّتي وَعَلَـيَّ أنْ أَلْقَـاكِ بـالمِقْرَاضِ

انظر البيتين في الأمالي. أبو علي القالي : 108/1.

(1) هو القحيف بن خمير بن سليم العقيلي (.. - نحو 130هـ= .. - نحو 747م). شاعر. عدّه الجمحي في الطبقة العاشرة من الإسلاميين. وكان معاصرًا لذي الرمة، له تشبيب بمحبوبته "خرقاء" وعاش إلى ما بعد يوم "الفلج" الذي قتل فيه يزيد ابن الطثرية (سنة 126هـ) ورثاه. انظر الأعلام. الزركلي : 191/5.

(2) الذي وقفت عليه أن البيتين يُنسبان للشعبي. انظر زهر الأداب. القيرواني : 428/2.

(3) تنسب هذه الأبيات لأبي الشيص محمد من شعراء العصر العباسي. انظر الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 82/10.

وهذا كلّه مذهب من يحفل بحلول الشّيب، ويعدّه نذيرًا مقبولَ النّصح. وأمّا مذهب من لم يحفل به، ويتّهمه في نصحه كمذهب النّاظم، فمن جيّد ما ورد فيه قول ابن مقبل[1] :

وتنَكَّـرَتْ شَـيْبي، فَقُلْـتُ لهَـا لَـيسَ المَشيب بِنَـاقِصٍ عُمْـري

سِـيَّانِ شَـيْبي والشَّـبَاب إِذَا ما كُنْتُ مـن أَجَلِي على قَـدْرِ

وقال عليّ بن محمد الكوفيّ[2] :

بكـى للشَّـيْب ثـمّ بكـى عَلَيـه فكـانَ أعَـزَّ مـن فَقْـدِ الشّـبابِ

فَقـلْ للشّـيب لا تبـرَحْ حميـداً إذَا نَــادَى شَــبَابِي بالــذّهَابِ

وقال مسلم بن الوليد :

الشّيب كُـرْهٌ وكُـرْهٌ أن يفـارقَني أعجب لشيءٍ على البغضاءِ مودودِ

يمضي الشّباب وقد يأتي له خَلَفٌ والشّيب يذهب مفقوداً بمفقودِ[3]

---

(1) هو تميم بن أبيّ بن مقبل من بني العجلان، من عامر بن صعصعة، أبو كعب (.. - بعد 37 هـ = .. - بعد 657 م) شاعر جاهلي، أدرك الإسلام وأسلم، فكان يبكي أهل الجاهلية. عاش نيفاً ومئة سنة. وعدّ في المخضرمين. وكان يهاجي النجاشي الشاعر. له (ديوان شعر). انظر الأعلام. الزركلي : 87/2. وانظر البيت في الدر الفريد. المستعصمي: 159/9.

(2) هو علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الأسدي، المعروف بابن الكوفي (254 - 348هـ= 868 - 960م). نحوي، أديب، من أهل الكوفة. كان جماعا للكتب. له تصانيف، منها (معاني الشعر). كان من أذكياء العالم. انظر الأعلام. الزركلي : 325/4. وانظر البيتين في نهاية الأرب. النويري : 22/2.

(3) ويُنسبان لبشّار بن برد، ولأبي العتاهية، وأكثرهم ينسبهما لمسلم. وانظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 22/2.

وقال آخر[1] :

وَقَائِلَـةٌ : خَـلِّ الهَـوَى لِرِجَالِـهِ فَـإِنَّ الهَـوَى بَعْـدَ المَشِـيب جُنُـونُ

فَقُلْتُ لَهَا : إنَّ الهَوَى فِيهِ رَاحَةٌ أَلَـذُّ الكَـرَى عِنْـدَ الصَّـبَاحِ يَكُـونُ

وهذا كقول ابذون بن مهيرة الكاتب العمانيّ[2] :

وَقَالُوا أَفِقْ مِنْ سَكْرَةِ اللَّهْوِ وَالصِّبَا فَقَدْ لاَحَ شَيْب فِي دُجاكَ عَجِيبُ

فَقُلْـتُ أَخِلاَّئِـي دَعُـونِي وَلَـذَّتِي فَإِنَّ الكَرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ يَطِيبُ[3]

وقال آخر[4] :

نَظَرتْ إلى رأسِي فَقَالَتْ ما لَهُ قـد ضَـمَّ فَوْدَيْـه قنـاعٌ أدكـنُ

يَـا هَـذه لَـولاَ النُّجـومُ وَحُسْـنُها لـم تـألَفُ اللَّيْـلَ البهـيمَ الأعـيُنُ

فَتَضَاحَكتْ عَجَباً وَقَالَت يَا فَتَى نُقْصَـانُ عَقْلِـكَ فـي قِياسـكَ بـيِّنُ

اللَّيْـلُ يَحسُـنُ بـالنُّجومِ وإنَّمـا ليـلُ الشَّـباب بـلا نُجُـومِ أحسَـنُ

وقال النّاس في الشّيب كثيرًا، وغرضُنا الإيجاز.

---

(1) لم أقف على اسمه. ونقل اليوسي البيتين في كتابه "زهر الأكم" ولم ينسبهما لأحد. انظر : 284/1.

(2) لم أقف على ترجمته.

(3) نسب أبو هلال العسكري في كتابه ديوان المعاني البيتين للخوارزمي من المتأخرين، ويروى بألفاظ متباينة، وينسب لعضد الدولة. انظر كتابه : 157/2.

(4) وهو أبو زهير بن أبي قابوس السجزي. وانظر الأبيات في يتيمة الدهر. الثعالبي : 389/4.

التّأكيد في قوله : "إنّ المحبّ" بالإتيان في الخبر بـ "إنّ" لكون المقام طلبيًا، لأنّه لمّا أخبر أنّه لا يسمع النّصح، كان كلّ سامع لذلك متشوّقًا لعلم علّته، ونظيره : ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾[1]؛ لأنّه لمّا قدّم له ما يلوح بالسّؤال عن حالهم، وَكّدَ غرقهم بـ "إنّ". ويحتمل أنْ يُقال : إنّ المقام إنكاريّ؛ لأنّه ينكر على من يعتقد خطأ من لا يقبل النّصح هنا، ومن الأوّل : ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2]؛ لأنّ النّفس تتشوّق إلى علم: هل الله موصوف بذلك بعد الأمر بالاستغفار، ومنه[3] :

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ ... إنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ

وفي قوله : "إنّ المحبّ.." التفاتٌ؛ من التكلّم إلى الغيبة، وفائدته ما تقدّم من التّفسير، وهذه الجملة أيضاً من التّذييل. ويحتمل أن تكون ممّا خرج مَخرج المثل منه؛ نحو : ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[4]. ويحتمل أنْ يكون من غيره، وتقدّم نظيره في قوله : "والحبّ يَعترضُ..".

---

(1) سورة هود : من الآية 37.

(2) سورة البقرة : من الآية 199.

(3) البيت لبشار بن بُرْد. والْهَجِيرُ : نصف النهار في القيظ عند شِدَّةِ الحرّ. انظر البيت في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 70/9.

(4) سورة الإسراء : الآية 81.

وفي قوله : "عَن العُذّال" تتميم؛ لأنّه احترس به من نصح من ليس بعاذل، فإنّه لا يتصامم عنه. وفي جعله الصّمم عن العذّال ظرفًا للمحبّ مبالغة حسنة، كأنّه أحاط به.

وقوله أيضاً : "إنّ المحبّ.." من الاستئناف البياني.

[حقيقة الاستئناف البياني]

ويسمّى بهذا الاسم ترك العطف، وهو الفصل، والجملة المفصولة أيضاً، وهو ثلاثة أقسام[1]، وهذا من أقسامه : «السُّؤَالُ عَنْ سَبَبِ الحُكْمِ الّذِي تَضَمَّنَتْهُ الُجملةُ الأُوْلَى»؛ كأنّه سُئل : لِم لَم تسمع؟ فقال : "إنّ المحبّ.."، ومنه قوله[2] :

قالَ لي كيْفَ أَنْتَ؟ قُلْتُ عَليلٌ   سَـهَرٌ دائـمٌ وحُـزْنٌ طَوِيْـلُ

أيْ ما بال علّتك، فقال : "سَهَر..". وقوله[3] :

وَقَدْ غَرِضْتُ مِنَ الدُّنْيا فَهَلْ زَمَنِي   مُعْـطٍ حَيَـاتِي لِغِـرٍّ بَعْـدَمَا غَرضَـا

جرَّبتُ دهري وأهْليهِ فما تَركَـتْ   لِيَ التجارب في وُدِّ امرئ غَرَضَا

أيْ : لِم تقول هذا؟ وما ألجأك إليه؟ فقال : جرّبتُ..

ويحتمل التّوكيد في قوله : "إنّي اتّهمت"؛ لكون المقام إنكاريًّا.

---

(1) أقسام الاستئناف البياني هي :

- الأوّل : السؤال عن سبب الحكم فيها مطلقًا. وهو الذي فصّل فيه ابن مرزوق.
- الثاني : السؤال عن سبب خاص له، كقوله تعالى : ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ ، كأنه قيل : هل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل : إنّ النفس لأمّارة بالسّوء.
- الثالث : السؤال عن غيرهما. كقوله تعالى : ﴿**فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ**﴾ ، كأنّه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام؟ فقيل : قال سلام. انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 189.

(2) هذا البيت ينقله الكتاب ولا يذكرون قائله. انظر البيت في الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 189.

(3) هو أبو العلاء المعري. انظر البيتين في معاهد التنصيص. أبو الفتح العباسي : 280/1.

وقوله : "فِي عَذَلِي" احتراس، وكذا قوله : "في نُصْحٍ"، وإنّما نكّره وإن كان مقتضى الظّاهر والأولى تعريفه؛ ليفيد أنّ الشّيب أَبْعد في حقيقة النّصح، لا في نصحٍ مَا؛ لأجل الوزن، لأنّ التنوين لا يتأتّى مع «أل»، ويحتمل أنْ يكون التّنكير فيه للتعظيم، وليس استحقاقه للتّعريف بـ «أل» مقصورًا على كون "أَبْعَدُ" للتّفضيل، خلافًا لبعضهم[1].

(1) أيْ الذين يجعلونه فعلا.

اَلْبَيَانُ

قوله : "محّضتني النّصح"؛ يُطلق النّصح، ويُراد به الألفاظ الدّالة عليه، ويُطلق ويُراد به المعنى، فإنْ أُريد الأولى، فلا مجاز في "لستُ أَسْمعُه"، وإنْ أريد الثّاني، فهو إمّا مِن مجاز الحذف؛ أيْ: أَسْمَع لفظَه. وإمّا أنّ المعنى : لستُ أقبَله. فهو من باب التّعبير باللاّزم عن الملزوم كما تقدّم.

ويُروى : "مَحَّضْتَنِي الوُدَّ"؛ أيْ فنصحتني. فهو من إطلاق السّبب على المسبّب؛ لأنّ الودّ سبب النّصح، و "أَسْمُعه" على هذا من مجاز الحذف؛ أيْ عن لفظ نصحه، أو أقبله كما تقدّم.

وقوله : "عن العذّال" من مجاز الحذف؛ أيْ: عن عَذْلِهم.

وقوله : "نصيح الشّيب"؛ الظّاهر أنّه استعارة، لأنّه شبّه الشّيب بنذير ينصحُه، ولم يذكر المشبّه به، لكنّه ذكر من لوازمه النّصح، فهو استعارة بالكناية على ما مرّ غير مرّة، ووجه الشّبه : أنّ الشّيب يعلم معه الإنسان أنّه في نقصان، فهو كالمنذر بقُرب الموتان، وليس هذا من التّشبيه في شيء، إذ لا دلالة لفظًا على المشبّه به. ويحتمل أن يكون مجازًا مرسلاً؛ من إطلاق السّبب وإرادة المسبّب؛ لأنّ ظهور الشّيب سبب في عَذل من ظهر عليه إنْ صَبا، أو هو يلازم العَذل؛ فيكون من تسمية اللاّزم باسم ملزومه، نحو : رَعينَا الغيثَ؛ أيْ النبت؛ لأنّ الغيث ملزومه.

اَلْبَدِيْعُ

سمّى بعضهم نحو "مَحَّضْتَنِي.." خطاب العاذل تهكّما.

قلتُ : وينبغي أن يُنظر في ذلك، فإن كان المتكلّم متلذّذًا بالحالة الّتي هو عليها، لا يرى غيرها شيئًا، فصحيح وجه هذه التّسمية، وإن كان متندّما عليها ساخطًا لها فلا. بل ينبغي أن يلحق بما سمّاه ابن المعتزّ[1] "عتاب المرء نفسه"[2]، وإن قال بعضهم : «لا ينبغي عدّه في البديع؛ لأنّه حكاية حال»[3].

و منه قول المتنبّي[4] :

وأنَا الّذي اجتَلَب المَنيّةَ طَرْفُهُ فَمَنِ المُطالَب والقَتيلُ القاتِلُ

ويشبه أيضاً أن يسمّى بـ "مُخرج الجدّ مخرَج الهزل"، وبعكسه[5].

وسمّى بعضهم نحو "لكن لستُ أسمعُه" استدراكًا، وهو عنده من ألقاب البديع، وشرط تضمّنه نكتة زائدة على الاستدراك بجنسه؛

---

(1) هو عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، أبو العباس (247 - 296هـ= 861 - 909م). الشاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. ولد في بغداد، وأولع بالأدب، فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. وصنف كتبا، منها (البديع). وللشعراء مراث كثيرة فيه. انظر الأعلام. الزركلي: 118/4.

(2) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 104/7.

(3) القائل هو تقي الدين الحموي. انظر كتابه خزانة الأدب وغاية الأرب : 320/1.

(4) انظر البيت في خزانة الأدب وغاية الأرب. تقي الدين الحموي : 190/1.

(5) وفائدته : أنه قد يتلطّف الأذكياء، فيعبّرون عمّا هُمْ جادّون فيه بعبارات مُزاحٍ وهزلٍ؛ خشية إثارة من يقصدونه بالخطاب، وليتأتّى لهم التنصُّل ممّا قالوا، بأنّهم يمزحون أو يَهْزِلُون، وأنّهم غير جادّين. انظر البلاغة العربية. عبد الرحمن حبنكة الميداني : 398/2.

كقول الأرجاني[1] :

غَـالَطَتْنِي إِذْ كَسَـتْ جِسْـمِي الضَّـنَا   كِسْوَةً أعرتْ عن الجسم الْعِظَاماَ

ثُمَّ قَالَـتْ : أنْتَ عِنْدِي فِي الْهوَى   مِثْلُ عَيْنِي. صَدَقَتْ لكن سَقَامَا

قلتُ : وإلحاقه بالقول بالمُوجِب أولى، وإن كان بلفظ الاستدراك.

---

(1) هو أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر، ناصح الدين، الأرجاني (460 - 544هـ= 1068 - 1149م). شاعر، في شعره رقة وحكمة. ولي القضاء بتستر وعسكر مكرم، وكان في صباه بالمدرسة النظامية بأصبهان. توفي بتستر. انظر الأعلام. الزركلي : 215/1.

وانظر البيتين في خزانة الأدب وغاية الأرب. تقي الدين الحموي : 146/1.

[حقيقة القول بالموجب عند أهل البلاغة]

ومن القول بالمُوجِب - وهو من القسم الثّاني منه. وهو : «حَمْلُ كَلاَمِ الغَيْرِ عَلَى خِلاَفِ مُرَادِهِ مِمَّا يَحتَمِلُهُ بِذِكْرِ مُتَعَلِّقِهِ»[1] - قول ابن دويدة المغربي[2] من أبيات يخاطب بها من أودع قاضيًا مالاً، فادّعى القاضي ضياعه :

إِنْ قَالَ : قَدْ ضَاعَتْ. فَصَدَقَ أَنَّهَا ضَاعَتْ، وَلَكِنْ مِنْكَ، يَعْنِي لَوْ تَعِ

أَوْ قَالَ : قَدْ وَقَعَتْ. فَصَدَقَ أَنَّهَا وَقَعَتْ، وَلَكِنْ مِنْهُ أَحْسَنَ مَوْقِعِ

وقريب منه قوله[3] :

---

(1) القول بالموجب قسمان :

- القسم الأوّل : أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه.
- القسم الثاني : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه. وهو الذي ذكره ابن مرزوق. انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزوني : ص 352 و 353.

(2) هكذا وردت نسبته بلفظ "المغربي" في الإيضاح في علوم البلاغة وغيرها من المراجع، ولم أقف على ترجمته، وفي بعض المراجع وردت بلفظ "المعري" بدل "المغربي"، فهو على هذا أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة المعري الشاعر المعروف.
وانظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 3/ 370.

(3) هُوَ أَبُو الحَسَنِ عَلِيّ بن فَضالِ بن عَلِيّ بنِ غَالِبِ المُجَاشِعِيُّ المَيْرَوَانِيُّ، وَفَاتُهُ فِي رَبِيع الأوّل بِبَغْدَادَ مِنْ سَنَةِ 379هـ. ويعرف بالفرزدقي، لأن الفرزدق جده. وانظر الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 14/10.

وَإِخـــوَانٍ حسِـــبتهُمْ دُرُوعـــاً فَكَانُوهَـــا، وَلَكِـــنْ لِلأَعَـــادِي
وَخلـــتُهُمْ سِـــهاماً صَـــائِبَاتٍ فَكَانُوهَـــا، وَلَكِـــنْ فـــي فُـــؤادِي
وَقَالُوا : قَدْ صَفَتْ منَّا قُلوب لقـدْ صَـدَقوا، وَلَكِـنْ مـن ودَادِي

إلاّ أنّ في حدّ القول بالمُوجِب بما تقدّم، وفي انطباقه على هذه الأمثلة نظر، بل الأولى أن يُحدّ بما حدّه به أهل أصول الفقه.

[حقيقة القول بالموجب عند أهل الأصول]

وهو : «تَسْلِيمُ الدّليل مَعَ بَقَاءِ النِّزَاعِ»[1].

وفي قوله : "إن المحبّ.." إلى آخره المذهب الكلامي، وتقرير الدّليل من الضرب الأوّل من الشّكل الأوّل : أنا محبّ، والمحبّ في صمم عن العذّال، فينتج أنا في صمم عن العذّال.

وفي قوله : "إنّي اتّهمت.." مفهوم الموافقة، فإنّه إذا اتّهم من لا يُتّهم، فمن يتّهم أحرى.

وفي "مَحَّضْتَنِي النّصْحَ" مراعاة النّظير؛ لمناسبتها، وكذلك ذكر العُذّال معهما. وفي "أسمعه" و "صمم" مطابقة لفظية. وفي "لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ" مع قوله : "مَحَّضْتَنِي" مطابقة معنويّة، وهو الخفيّ؛ لأنّ ما لم يسمع من النّصح، كأنّه غير ممحوض. وفي البيت الأوّل الاستخدام.

---

(1) انظر تعريف الموجب في إرشاد الفحول. الشوكاني : 156/2.

[حقيقة الاستخدام]

وهو : «أَنْ يُرَادَ بِلَفْظٍ لَهُ مَعْنَيَانِ أَحَدُهُمَا، وَبِضَمِيرِهِ الآخَرُ[1]، أَوْ بِأَحَدِ ضَمِيرَيْهِ أَحَدُهُمَا، وبِالآخَرَ الآخَرُ»[2].

وذلك لِما قدّمنا من أنّ النّصح يراد به اللّفظ والمعنى، فهو يحتمل أن يريد بالنّصح الممحوض المعنى، وضمير "أسمعُه" لا يعود إلاّ على لفظه؛ لأنّ متعلّق السّمع اللّفظ لا المعنى، فهو كقوله :

إِذَا نَـزَلَ السَّـمَاءُ بِـأَرْضِ قَـوْمٍ   رَعَيْنَـاهُ وَ إِنْ كَـانَوا غِضَـابَا[3]

أراد بالسّماء الغيث وبضميره النّبت، وفيه نظر.

وجعل بعضهم قوله : "في صمم" من التّجريد، كما تقدّم في "الهَوَى العُذْريّ".

والبيت الثّاني من الإدماج؛

---

(1) أيْ معناه الآخر.

(2) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 332.

(3) ينسب البيت لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب، وهو معوّد الحكماء، ويُنسب أيضاً لجرير. انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 260/2.

[حقيقة الإدماج]

وهو : «أنْ يُضمَّنَ كلامٌ سيقَ لمعنًى، معنًى آخرَ[1]»[2]؛

كقول المتنبّي[3] :

أُقَلّب فيهِ أجْفاني كأنّي   أعُدّ بهِ على الدّهرِ الذّنُوبَا

ضمّن وصفَ اللّيل بالطّول الشّكايةَ من الدّهر.

وهنا ضمّن اتّهام العَاذل في نُصحه اتّهام الشّيب أو الشّكاية من النّفس في عدم اتّعاظها بالشّيب، وبدأ بذكر الشّيب توطئةً لذلك.

ولا يبعد أنْ يُقال في الثّاني أيضاً مراعاة النّظير. وفيه تجنيس الاشتقاق في "نصيح" و "نصح" على بعض المذاهب في مثل المصدر مع غيره، وكذا القول في "العذّال" و "العذل". وفيه الرّجوع.

---

(1) أي لم يصرخ به.

(2) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 348.

(3) انظر البيت في العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ابن رشيق القيرواني : 43/2.

[حقيقة الرّجوع]

وهو : «العَوْدُ عَلَى الكَلاَمِ السَّابِقِ بِالنَّقْضِ لِنُكْتَةٍ»[1]؛ كقول زهير[2]:

قِفْ بالدّيار الّتي لم يَعْفُها القِدَم   بلَى وغيَّرها الأرياح والدِّيمُ

كأنّه لمّا وقف عليها أذهله الحزن حتّى أخبر بما لم يتحقّق، فلمّا رجع إليه عقله تدارك بقوله : بلى. ومنه[3] :

أَليسَ قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها   إليكِ وكَلاًّ ليسَ منكِ قليلُ

وقوله[4] :

فَأُفٍّ لِهذَا الدَّهْرِ   لاَ بَلْ لِأَهْلِهِ

وهو هنا لمّا أخبر باتّهامه الشّيب، رجع فأخبر أنّه أبعد في نصح عن التّهم. ويشبه أن يكون قوله : "لكن لستُ أسمعُهُ" من الرّجوع أيضاً.

وقوله : "والشّيب أبعد" من المذهب الكلامي. وفي قوله : "اتّهمت" و "التّهم" ردّ الصّدور على الأعجاز، وهو أيضاً من تجنيس الاشتقاق.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 330.

(2) انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 144/7.

(3) أنشد محمد بن سلام هذا البيت، وزعم أنها لأبي كبير الهذلي، ورُويت ليزيد بن الطَّثْرِيّة وغيره، والرواة يُدْخلون بعض الشعر في بعض. انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 145/7

(4) لم أقف على قائل هذا البيت. وانظره في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 258/2.

وقوله : "نصيح الشّيب" و "الشّيب" من التّكرير، ولولا قصده ما حسُن إيقاع الظّاهر موقع المضمر، والغرض منه تفخيم أمر الشّيب، وتعظيم أمره في استبعاد التّهمة، ومن فوائد ذلك أيضاً إقامة الوزن، وفي البيتين الإرصاد، وهو ظاهرٌ.

محّض : تعدّى إلى مفعولين كما ترى، ولا محلّ لجملته؛ لأنّها إمّا مستأنفة أو تفسيريّة لـ "لوم اللاّئم" المتقدّم.

ولكن : حرف استدراك تعطف، وتقع بين متضادّين أو مختلفين، والمتعاطفين بها هنا كالمتناقضين؛ لأنّ الودّ[1] إن لم يسمع؛ فكأنّه غير ممحوض كما تقدّم. وجملة "أَسْمَعُه" : في محلّ نصب على أنّها خبر "ليس"، وجملة "لستُ أَسْمَعه" الكبرى : لا محلّ لها، لعطفها على ما هي كذلك. وفي صمم : خبر "إنّ"، فهو متعلّق بمحذوف.

وعن العذّال : متعلّق بـ "صمم"، أو بكائن على أنّه هو الخبر، و "في صمم" متعلّق به، وفي تعلّقه بـ "صمم" تقدّم معمول المصدر، إلاّ أنّه قد يُقال : المراد به الثّبوت لا التجدّد، وأنّ المجرور لضعفه والتوسّع فيه يسوغ تقديمه، ويعمل فيه رائحة الفعل، وفي الثّاني أيضاً نظر؛ إذ لا تستقلّ به الفائدة، وفي الظرفية مبالغة كما تقدّم. وعن : للمجاوزة؛ أيْ جاوز صممه العذّال. وجملة "إنّي اتّهمت.." إلى آخره : لا محلّ لها؛ لاستئنافها. ونصيح الشّيب : مِن إضافة الصّفة إلى الموصوف؛ أيْ الشّيب النّصيح. وفي عذلي : متعلّق بـ "اتّهمت"، والأقرب كون "في" سببيّة، وجملة "والشّيب.." إلى آخرها؛ إمّا معطوفة على الأولى، فلا محلّ لها أيضاً، أو حال من "نَصيح"، فتكون في محلّ نصب.

وعن التّهم : متعلّق بـ "أَبْعَدُ"، وكذا " في نصح" على الأظهر.

---

(1) وهذا طبعا على رواية : محّضتني الودّ.

الْإِشَارَاتُ

[اتّهام النّفس والشّيطان في نصحهما]

وعلى نمط ما تقدّم منها في البيتين قبلُ من العبارات؛ أنّه ينبغي للمجاهد في الله حقّ جهاده الّذي لا يخاف فيه لومة لائم، إنْ حاول أهل زمانه - المخالفون أمر الله - ردّه عمّا هو فيه من الإنكار عليهم بلطف منهم وتحيّل، بعد عجزهم عن مجاهدته أو استحيائهم منه، فإنّهم يبدون له النّصيحة بمثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ [1].

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعاً وَهَوًى مُتَّبعاً.. وَإِعْجَاب كُلِّ ذِى رَأْى بِرَأْيِه، فَعَلَيْكَ بِخُوَيْصَة نَفْسِكَ**»[2].

فليتّهم قائل ذلك كما يتّهم الشّيطان في نصحه، ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [3]، وليقلْ لقائل ذلك : محّضتني النّصح بزعمك، ولكن لستُ أسمعُه، إنّ المحبّ فيما عند الله من الثّواب الجزيل عَن عَذْل العذّال مثلك لفي صمم.

وممّا يبديه هذا العاذل من النّصيحة أنْ يقول للقائم بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: اربع على نفسك لئلاّ تهلكها بمناوأتك

---

(1) سورة المائدة : من الآية 105.

(2) رواه الترمذي عن أَبِي ثَعْلَبَةَ مرفوعا في تفسير القرآن. باب وَمِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ. ورواه غيره. والحديث ضعيف.

(3) سورة الأنعام : من الآية 121.

من لا تطيقه : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1]، وما علم هذا العاذل أنّ مِن أفضل الجهاد كلمة حقّ عند إمام جائر[2].

فإذا صدر منه هذا، فليقلْ له إنّي اتّهمتُ في مثل هذا النّصح، بل فيما هو أقلّ منه مَن لا يُتّهم، وهو الشّيب، فإنّ لسان حال الشّيب يقول للمجتهد في العبادة : أوغلْ فيها برفق، فإنّك قد ضعفتَ وكبرتَ، فابقِ على نفسك لئلاّ ينقطع عملك بالكلّية. وهذا وإن كان ظاهره جميلاً، لكن فيه دسائس، فإنّه إن أطاعه فقد يكون استدراجًا يؤول إلى ترك العمل شيئًا فشيئًا إلى أن ينقطع بالكلّية، وما ترك سيّد المرسلين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر - شيئًا من عمله بعد كبره. نعم كان يصلّي بعض ورده جالسًا بعد أنْ كان يقوم حتّى تتفطّر قدماه، ويُقال له : لِم، وقد غفر الله لك ما تقدّم وما تأخّر؟ فيقول : «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[3]. فكيف بمن أثقلت ظهره الأوزار، ولا يأمن من عذاب النّار، أن يغفل حال شبيبته، ويتوانى عند ظهور شَيْبته، والّذي يليق بحال ذي الشّيبة إنْ عذله شيبُه، أنْ ينشده قوله : أَلَذُّ الكَرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ يَكُونُ..[4].

---

(1) سورة البقرة : من الآية 195.

(2) أصله حديث : «**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ**». رواه الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مرفوعا في الفتن. باب مَا جَاءَ أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ. والحديث صحيح.

(3) رواه البخاري عن الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ مرفوعا في الجمعة. بَاب قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّيْلَ حتّى تَرِمَ قَدَمَاهُ. ورواه غيره.

(4) تقدم ذكر البيتين قريبا.

وقوله[1] :

وَأَبرَحُ مَا يَكُونُ الشَّوقُ يَوْماً   إِذَا دَنَتِ الخِيَامُ مِنَ الخِيامِ

بل ينبغي للإنسان أن يستعدّ قبل حلول شيبه : «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ؛ شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ**»[2]، فإنّ مَن شاب، فقد لاح بياض صبح سواد ليل شعره، وقد قال تعالى منذرًا لمن لم يدخل في الصّباح : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[3]. فكيف يقرب من دخل في الصّباح، وظهر كوكب نهاره في أفق رأسه ولاَح.
وسمع بعضهم منشدًا ينشد[4] :

إِذَا العِشْرُونَ مِن شَعْبانَ وَلَّتْ   فَوَاصِلْ شُرْب لَيْلِكَ بالنّهَارِ

---

(1) لم أقف على قائل هذا البيت بلفظه، والذي وقفت عليه هو قول إسحاق بن إبراهيم المَوصليّ :

وَأَبْرَحُ مَا يَكُوْنُ الشَّوْقُ يَوْمًا   إِذَا دَنَتْ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

انظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 496/9.

(2) هو جزء من حديث، وهو بتمامه : «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبلَ خَمْسٍ؛ شَبابَكَ قَبْلَ هرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفرَاغَكَ قَبلَ شُغْلُكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**». رواه البيهقي في شعب الإيمان عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مرفوعا في الزهد : 476/12. الحديث رقم : 9767. ورواه غيره. والحديث على شرط البخاري ومسلم.

(3) سورة هود : من الآية 81.

(4) ينسب البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولأبي نواس، وللجوزي، وللفقيه أحمد بن علي المشكهري الموصلي، ولابْن الحَجَّاجِ. انظر البيتين في زهر الأكم في الأمثال والحكم. اليوسي : 88/3.

وَلاَ تَشْرَب بِأَكْوَاسٍ[1] صِغَارٍ فَقَدْ ضَاقَ الزّمانُ عَنِ الصَّغَارِ

فخرج مسرعًا إلى مكّة، وأقام بها مجدًّا في العبادة إلى أنْ مات[2].

اللّهمّ ألهمنا رشد أنفسنا بمنّك وفضلك.

❁ ❁ ❁

---

(1) يُروى "بأقداح" بدل "أكواس".

(2) وقفتُ على القصة في كتاب الفتوحات القدوسية شرح المقدمة الأجرومية. ابن عجيبة : ص ١٩٠.

فَــإِنَّ أَمَّــارَتِي بالسُّــوءِ مَــا اتَّعَظَــت مِن جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْب والهَرَمِ

وَلاَ أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ضَـيفٍ أَلَـمَّ بِرَأْسِي غَيْـرَ مُحْتَشِـمِ

شَرْحُ الْغَرِيْبِ

أَمَّارَتِي : يعني نَفْسِي، وهو فعّالة للمبالغة والتّكثير، من أمره بكذا أمرًا، وجمع الأمْرِ الأوَامِر.

والسّوء : اسم جامع للقبائح، يُقال : سَاء الرّجل يسُوء؛ أيْ قَبُح، وسَاءه يسُوءه سَوءًا، - بالفتح - وَمَساءَةً وَمَسائِيَةً : نقيض سَرَّهُ. والاسم السُّوءُ بالضمّ. وقُرئ به: ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ﴾[1]؛ وهي الهزيمَة والشّرّ. ومَن فَتَح فمِن المَساءَةِ. ورجلُ سَوْءٍ بالإضافة، ورجلُ السُّوء أيضاً. قال الأخفش : «لا يُقال : الرّجل السَّوْء، ويُقال : الحقّ اليقين، وحقّ اليقين، لأنّ السَّوء ليس الرّجل، والحقّ هو اليقين، ولا يُقال : رجل السُّوء بالضمّ». وأساء إليه : نقيض أحسن. ومنه ﴿السُّوأَى﴾[2]. [3]

---

(1) سورة التوبة : من الآية 98. قرأها ابن كثير وأبو عمرو بضم السين، والباقون قرأوها بالفتح. انظر المبسوط في القرآت العشر. النيسابوري : ص 228.

(2) من الآية 10. سورة الروم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 55/1. مادة سوأ.

اتّعظت : افتعلت من الوَعْظ، وأصله اوْتَعَظَت، فأُبدلت الواو تاءً، وأُدغمت في التّاء. والوَعْظ : النّصح، والتّذكير بالعواقب. وَعَظَه وَعْظًا، وَعَظَه فاتّعَظَ؛ أيْ قَبِل المَوْعِظَة. يُقال : السّعيد مَن وُعظ بغيره، والشّقيّ مَن اتّعظ به غيره[1].

والجهل : خلاف العِلْم. جَهِلَ جَهْلاً وجَهالَةً. وتَجاهَلَ : أرى مِن نفسه ذلك وليس به. واسْتَجْهَلَهُ : عدّه جاهلاً، واستخفّه أيضاً. والتَجْهِيلُ: النِّسبة إلى الجَهْل. والمَجْهَلَةُ : ما يَحمِل على الجَهْل. ومنه : «**الوَلَدُ.. مَجْهَلَةٌ**»[2].[3]

النّذير : اسم فاعل بمعنى المُنْذِر، وهو المُبلّغ، ويكون النّذير أيضاً مصدرًا بمعنَى الإنْذَار، وهو الإبلاغ، ولا يكون إلاّ في التّخويف، والاسم النُذُرُ، ومنه : ﴿عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[4]؛ أيْ إنذَارِي[5].

والهَرَم : بالتّحريك؛ كِبَر السِنّ، وقد هَرِم – بالكسر – وأهْرَمَهُ الله، فهو هَرِمٌ، وقوم هَرْمَى، و : «**تَرْكُ العَشَاءِ مَهْرَمَةٌ**»[6].[7]

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1181/3. مادة وعظ.

(2) هو حديث رواه الطبراني في الكبير عن خولة بنت حكيم مرفوعا : 241/24. رقم الحديث 614. ورواه غيره. ورجال سنده ثقات.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1664/4. مادة جهل.

(4) سورة القمر : من الآية 16. وتكرّرت في عدّة آيات.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 825/2. مادة نذر.

(6) أيْ مَظِنَّةٌ للهَرَم. وأصل القول حديث نبوي رواه الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا في الأطعمة. بَاب مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْعَشَاءِ. والحديث ضعيف.

(7) انظر الصحاح. الجوهري : 2057/5. مادة هرم.

أعدّت : معناه يَسَّرَتْ وهَيَّأَت، ومنه : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وقيل : ادّخَرَت. وقال بعضهم : «وأصله جَمَعَت».

الجَمِيلُ : الحَسَن؛ اسم فاعل من جَمُل بالضمّ؛ أيْ حَسُن. والجَمَال: الحُسْن. وامرأة جميلةٌ وجَمْلاءُ عن الكسائي[2]. والجُمَّالُ - بالضمّ والتّشديد - : أَجْمَلُ مِنَ الجَميلِ.

وقول أبي ذؤيب[3] :

جَمالَكَ أيُّها القَلْبُ القَرِيحُ سَتَلْقَى مَنْ تُحِبّ فتَسْتَرِيحُ

معناه : الْزَمْ تَجَمُّلَكَ وحياءَك، ولا تجزعْ جزعاً قبيحاً[4].

والقِرَى : بكسر القاف مقصور، وبفتحها ممدود؛ مصدر قَرَيْتُ الضّيف؛ إذا أحسنتُ إليه، وقَرّيته قِرى، كقليته قلى. والمِقْرى : إناءٌ يُقْرى فيه الضّيف. والجَفْنَةُ : مِقْراةٌ[5].

---

(1) سورة آل عمران : من الآية 133.

(2) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء، الكوفي، أبو الحسن الكسائي (.. - 189هـ= .. - 805م). إمام في اللغة والنحو والقراءة. من أهل الكوفة. وقرأ النحو بعد الكبر، وتنقل في البادية، وسكن بغداد، وتوفي بالريّ، عن سبعين عامًا. وهو مؤدّب الرشيد العباسي وابنه الأمين. له تصانيف منها (معاني القرآن). انظر الأعلام. الزركلي : 283/4.

(3) هو خويلد بن خالد بن محرث، أبو ذؤيب، من بني هذيل بن مدركة، من مضر (.. - نحو 27هـ = .. - نحو 648م). شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. وسكن المدينة. وعاش إلى أيام عثمان. مات بمصر، وقيل مات بإفريقية. انظر الأعلام. الزركلي : 325/2. وانظر البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 6/ 547.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1661/4. مادة جمل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2461/6. مادة قرا.

الضّيف : يكون واحدًا وجمعًا، وقد يُجمع على أضْيَاف وضُيُوف وضِيفَان، ويُقال للمرأة ضَيْف وضَيْفة. وأَضَفْتَ الرّجل وضَيّفته؛ أنزلتَه بك ضَيْفاً وقرَيْتَه. وضِفْتُ الرّجل وتَضَيَّفْتُهُ : نزلتُ عليه ضَيفًا. ومنه قول الفرزدق[1]:

وَجَدْتَ الثّرَى فينا إذا الْتُمِسَ الثّرَى   وَمَنْ هُوَ يَرْجُو فَضْلَهُ الْمُتَضَيِّفُ

وأَضَافَنِي : أَمَالَني إلى نفسه للضّيافة[2].

وألَمّ : نَزَلَ، والإلْمَامُ : النّزُولُ[3].

ومُحْتَشِم : أيْ مُسْتَحْيِي. أبو زيد «حَشَمْتُ الرّجل وأَحشَمْتُهُ : آذيته وأغضبته». ابن الأعرابي : «حَشَمْتُهُ : أخجلته. وأَحْشَمْتُهُ : أغضبتُه». والاسم الحِشْمَةُ؛ وهو الاستحيَاءُ والغضب أيضاً. الأصمعيّ : «إنّما الحِشْمَةُ الغضبُ لا الاستحياءُ». وعن بعض فُصحاء العرب : «إنّ ذلك لَمِمَّا يُحْشِمُ بني فلان؛ أيْ يُغضبهم». واحْتَشَمْتُهُ واحْتَشَمْتُ منه بمعنىً. ورجلٌ حَشيمٌ؛ أيْ مُحْتَشِمٌ. وحَشْمُ الرّجل : خَدَمُهُ، ومَن يغضبُ له، سُمّوا بذلك لأنّهم يغضبُون له[4].

---

(1) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق (..-110هـ=..- 728م). شاعر، من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة، يشبه بزهير بن أبي سلمى. وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ولقب بالفرزدق، لجهامة وجهه وغلظه. وتوفي في بادية البصرة. انظر الأعلام. الزركلي: 93/8.

وانظر البيت في جمهرة أشعار العرب. محمد بن أبي الخطاب القرشي : ص 704.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1392/4. مادة ضيف.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2032/5. مادة لمم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1900/5. مادة حشم.

التَّفْسِيْرُ

[اتّهام النّفس الأمّارة بالسّوء]

مِن هنا تجرّد النّاظم من ثياب الهزل صورةً، وهو الغزل الذّي يُوهمه ويُريبه، وانغمس في بحر الجدّ الّذي دخل فيه، وهو خروج بديع إلى المَطلَب، فإنّه علّل انهماكه في حبّه بتركه للجدّ، ودخل فيه، ولمّا كان قوله : "إنّي اتّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ" يستلزم أنّه لم يطعه، ولم يأخذ بقوله، إذ لا شهادة لمتّهم، بيّن هنا علّة ما أجمله في ذلك، فقال : حاملي على عدم قبول نُصح الشّيب - وإن كان أبعد في نصح عن التّهم - أنّ أمّارتي؛ أيْ نفسي الأمّارة بالسّوء، ما اتّعظتْ؛ أيْ ما قَبلت موعظة الشّيب من أجل جهلها بنذير الشّيب؛ أيْ جهلت إنذار الشّيب والهَرَم، فـ "نذير" على هذا بمعنى المصدر، أو بالشّيب النّذير، فيكون من باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، ويكون التّقدير أيضاً: ونذير الهرم؛ أيْ والهرم النّذير، أو إنذار الهرم على التّقدير الأوّل، ويَبْعُدُ أنْ يكون "فإنّ أمّارتي.." جواب سؤال مقدّر؛ أيْ: لو لم تُطع الشّيب - مع أنّه أبعد في نصح عن التّهم - من أجل الفاء ولولاها، لتمكّن.

ويحتمل أن يكون المعنى: ما اتّعظت بإنذار الشّيب، فأفاقتْ مِن جهلها، لكنّها أعرضَتْ عن إنذاره، فاستمرّت على جهلها، وباء "بنذير" على هذا التّفسير للاستعانة، ويتعلّق بـ "اتّعظت"، وكذا "مِن"؛ وهي لابتداء الغاية؛ أيْ ابتداء انتفاء اتّعاظها مِن مصاحبة جهلها، على حذف مضاف.

وقال بعضهم[1] : «هي للانتهاء؛ نحو : أفاق من غشيته؛ أيْ من انتهائها».

قلتُ : ولا يصحّ هنا، والإلزام أنْ يكون اتّعظت نفسُه، لأنّه حقيقة الانتهاء، وهو يُخبر عنها أنّها ما اتّعظَتْ. وعلى التّفسير الأوّل تكون الباء زائدة في المفعول؛ أيْ جهلت نذيرًا، أو نُذُر نذير على حذف مضاف، ومن زيادتها مع المفعول : ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[2].

وقال بعضهم : «إنْ تعلّقت بـ "جهل"؛ فهي للتّعدية».

قلتُ : وبُعدُه ظاهرٌ؛ لتعدية "جهل" بنفسه.

وقوله : "أمّارتي"؛ أضاف أمّارة – الّتي عنَى بها نفسه - إلى ياء المتكلّم، وهي أيضاً نفسه، فتكون نفسه على هذا آمرة مأمورة، والعقل يقضي بتغايرهما، وأمّا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[3]، سواءً قدّرنا أنّه من تمام كلام امرأة العزيز على القول بذلك، أو من كلام يوسف عليه الصّلاة والسّلام، فلا يرد فيه مثل هذا؛ لأنّها لم تضف. قال الزّمخشري : «أراد هذا الجنس؛ يأمر بالسّوء، ويحمل عليه بما فيه من الشّهوات»[4].

وأجاب بعضهم عن هذا السّؤال : بأنّ هذا الإنسان إنْ عزم على شيء تردّد فيه، فتارةً يشتدّ عزمه على فعله، وتارةً على تركه، فهما

---

(1) هو سيبويه. انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 136/3.

(2) سورة البقرة : من الآية 195.

(3) سورة يوسف : من الآية 53.

(4) انظر الكشاف. الزمخشري : 453/2.

خاطران، فالصّواب منهما النّفس المطمئنّة، وهي المأمورة بالسّوء ومخالفة النّفس الأمّارة. قال : «وهذا هو المراد في الآية أيضاً، لا أنّ نفس الإنسان تأمر إنسانًا آخر».

قلتُ : والأولى أنْ يُقال : إنّ الأمّارة هي النّفس، والياء المضاف إليها هي البدن؛ وهو المأمور، فالنّفس مستولية بسلطانها على البدن؛ تصرفه في شهواتها، إلاّ أن يزعها وازع العقل.

وقال بعض الحكماء : «النّفس شيء واحد، فإنْ مالت إلى العالم الإلهي فمطمئنّة، وإلى الشّهوة والغضب فأمّارة»[1].

وهذا البناء للمبالغة؛ لأنّ النّفس من أوّل حدوثها أَلِفَت المحسوسات وعشقتها، وشعورها بعالم المجرّدات نادر لا يحصل إلاّ للواحد في الأوقات النّادرة، ومنهم من قال : «المطمئنّة هي : العقلية النّطقية، والشّهوانية والغضبية مغايرتان لها»[2].

---

(1) انظر تفسير مفاتيح الغيب. الفخر الرازي : 126/18.

(2) انظر تفسير مفاتيح الغيب. الفخر الرازي : 126/18.

[أقسام النّفس]

وقال علماؤنا – رضي الله عنهم – : قسّم الله تعالى النّفس بثلاثة أقسام لثلاثة أحوال : أمّارة؛ وهي الّتي لا يلوح لها طمع إلاّ تعرّضت له، ولا تبرز لها شهوة إلاّ اقتضتها، لم تسلك طريق الرّشاد، ولا استضاءت بنور السّداد، ولا أحكمتها الرّياضة، فهي تهيم في كلّ وادٍ من البطالة، وذلك المعبّر عنه بالهوى، وهذه النّفس من طين أو في طين.

ومطمئنّة؛ وهي الّتي ثبتت لها من الله العصمة من المعاصي، وسبقت لها منه السّعادة. وقيل فيها مطمئنّة؛ لاطمئنانها إلى ذكر الله. وقيل : إلى الإيمان. وقيل : إلى التّصديقِ بوعد الله. وقيل غير ذلك.

ولوّامة؛ وهي الّتي إنْ وقعت في معصية بسابق القضاء، رجعت بالملامة على ذاتها، وتلك حال حميدة، ولها إن شاء الله عاقبة جميلة، وهي حالة أكثر المؤمنين، ولفضلها أقسم الله بها[1].

قال بعضهم : «لي نفس مشؤومة، والمعاصي فِعالها، كلّما قلت قد سَلَتْ[2] عن هواها، بدا لها. ليت شعري ما الّذي غرّها؛ فاستمالها».

فإن قلتَ : كيف وبّخ النّفس على عدم اتّعاظها من جهلها؟ والجهل لا قدرة للإنسان على تحصيله ولا على دفعه.

قلتُ : ما لا يقدر عليه الإنسان، قد يكون قادرًا على سببه، فيُلام لترك السّبب، أو يُمدح بالأخذ فيه، ولذا أُمرنا أن نعلم أن لا إله إلاّ الله[3]،

---

(1) وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾. سورة القيامة : الآية 2.

(2) أيْ عزفت.

(3) وذلك في قوله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾. سورة محمد : من الآية 19.

ونحن لا نقدر إلاّ على سبب ذلك، وهو الاستدلال، وأسباب رفع الجهل المقدورة هي التّعلّم، ومن هذا : ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]، فإنّه نهي عن الموت إلاّ حال الإسلام، ولا قدرة لنا على ذلك، وإنّما المعنى : لا تفارقوا الإسلام كيْ تموتوا عليه، ولا يختصّ هذا السّؤال بجعل "مِن" في "مِن جهلها" لغير التّعليل، خلافًا لبعضهم.

وقوله : "ولا أعدّت"؛ أيْ أنّ أمّارتي ما اتّعظت، ولا أعدّت؛ أيْ يسّرت وهيّأت من الفعل الجميل؛ وهي الأعمال الصّالحات الّتي يجب الختم بها. قِرَى ضَيفٍ؛ أيْ إحسانًا بالفعل الجميل إلى الضّيف الّذي نزل برأسي ولم يحتشم، وذلك الضّيف هو الشّيب، وإنّما استحقّ أنْ تُعدّ الأعمال الصّالحات لضيافته، لأنّه زائر الموت ومُنذرٌ به، وكأنّه إنّما يأتي ليرتحل بما نزل به، فالواجب أنْ يعدّ الإنسان زاده قبل أن يجيء الرّكب الّذي هو سريع الارتحال، فإنّه إن أخّر الاستعداد إلى نزوله، قد لا يتمكّن من شيء؛ لسرعة الرّحيل وضيق الوقت : «**شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ**»[2].

ووجه تشبيه الشّيب بالضّيف؛ أنّ الّذي كان ملازمًا للإنسان قبل الشّيب وهو الشّعر الأسود، فلمّا تبدّلت صفته كان كالضّيف الأجنبي الّذي ينزل بالشّخص، ولمّا كان نذيرًا بانقضاء العمر، صار بلسان حاله كالطّالب للمبادرة بالأعمال الصّالحة الّتي تُتزوّد إلى الآخرة، كما يطلب الضّيف قراه تصريحًا أو حكمًا. ووجه وصفه بكونه غير محتشم؛ أيْ غير

(1) سورة آل عمران : من الآية 102.

(2) سبق تخريج الحديث قريبا.

منقبض ولا مستحيٍ، إنّه لمّا كان من آداب الضّيف أنّه لا يذكر الثّواء والإقامة عند مَن أضافه حتّى يخرجه، كما ثبت ذلك من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما رُوينا في الصّحيح[1]، وإنّ من آدابه الاكتفاء بما وجد، وسترْ مقابح أهل البيت؛ من تقصيرهم بحقّه وغير ذلك، ومن لا يفعل ذلك من الضِّياف، فهو غير محتشم، كأنّ ضيف الشّيب غير محتشم؛ لأنّه إن نزل لا يرتحل إلى الممات، ويشتعل كلّ يوم ويزيد، فهو كالضّيف الدّاعي الأضياف : هلمّوا إلى النّزول، وهو بلسان حاله ينعى وينادي جهارًا على من لم يقم بحقّه بالتّوبيخ، ويوجب التّقبيح من النّاس على مَن لم يرعَ حقّه.

(1) الحديث بلفظه : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلاَ يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حتّى يُحْرِجَهُ». رواه البخاري عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الكَعْبِيِّ مرفوعا في الأدب. بَاب إِكْرَامِ الضَّيْفِ، وَخِدْمَتِهِ إِيَّاهُ بِنَفْسِهِ. ورواه غيره.

[أقوال في الشَّيب]

وممّا قيل في الشّيب : «نُورٌ في الرُّؤُوسِ، وظُلمَةٌ في النّفُوسِ». «الشَّيب وَكلُّ عَيْبٍ». «الشَّيْب حِلْيَةُ العَقْلِ». «الشَّيْب زُبدةٌ مَخَضَتْهَا الأيّامُ»[1].

---

(1) ويقال : الشيب زبدةٌ مخَضَتها الأيام، وفِضّة سبكتها التجارب. انظر هذا الذي قيل في الشيب وغيره في زهر الأداب وثمر الألباب. القيرواني : 2/280.

[أقوال في وعظ الشَّيب]

وممّا قيل في وعظه[1] :

الشَّـيْب خَيْـرُ نَـذِيرِ　　لَـوْ كَـانَ يُغْنِـي النَّـذِيرُ

ولقمر الدّولة[2] :

لمّا رَأَيْتُ المَشِيبَ في الشَّعَرِ الأسْوَدِ　　قـد لاحَ صِـحْتُ واحَزَنِـي

هَـذَا وَحَـقِّ الإلـهِ أَحْسَـبُهُ　　أَوَّلَ خَـيْطٍ سُـدِّى مِـنَ الكَفَـن

ولأبي الفتح البستي[3] :

لاَ عُـذْرَ مِـنْ بَعْـدِ المَشِـيب يُخَـالِعُ　　يَصْـبُو إلـى كَـأْسِ المُـدَامِ وَيَشْـرَبُ

الشَّـيْب مِثْـلُ طَلِيعَـةٍ ، وَوَرَاءَهُ　　جُنْـدٌ يُغِيـرُ عَلَـى الحَيَـاةِ وَيَنهَـبُ

---

(1) لم أقف على اسم قائل هذا البيت. وانظره في التمثيل والمحاضرة. أبو منصور الثعالبي : ص 384.

(2) هو جعفر بن علي بن دواس، أبو طاهر الكتامي المعروف بقمر الدولة، من أهل مصر؛ نشأ بطرابلس الشام، وكان شاعراً رشيق الألفاظ عذب الإيراد لطيف المعاني، وله في الغنا وضرب العود طريقة حسنة بديعة. قدم بغداد وأقام بها مدة في خدمة قسيم الدولة البرسقي، وكان نديماً له، وتوفي بعد الخمسمائة. انظر فوات الوفيات. محمد بن شاكر : 287/1.

وانظر البيتين في الكشكول. محمد بن حسين الهمذاني : 110/1.

(3) هو علي بن محمد بن الحسين البستي، أبو الفتح (.. – 400هـ= .. – 1010م). شاعر عصره وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته. وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، وارتفعت مكانته عند الأمير سبكتكين، مات غريبا في بلدة "أوزجند" ببخارى. انظر الأعلام. الزركلي : 326/4.

ولم أقف على البيتين في المصادر.

ولبعض شعراء اليتيمة[1] :

لَقَـدْ بَـانَ الشَّـبَاب وَكَـانَ غَضـاً | لَـــهُ ثَمَـــرٌ وَأَوْرَاقٌ تُظِلُّـــكَ
وَكَـانَ الـبَعْضُ مِنْـكَ فَمَـاتَ فَـاعْلَمْ | مَتَـى مَـا مَـاتَ بَعْضُـكَ مَـاتَ كُلُّكَ

ولآخر[2] :

يَـا شَـيْبَتِي دُومِـي وَلاَ تَرْتَحِلِـي | وَتَيَقَّنِــي أَنِّــي بِوَصْــلِكِ مُولَــعُ
قَدْ كُنْتُ أجْزعُ مِن حُلُولِكَ مَرَّةً | فَالآنَ مِنْ خَوْفِ ارْتِحَالِكِ أَجْزَعُ

(1) أي يتيمة الدهر للثعالبي. انظر فيه : 33/3. والقائل هو ابن سكرة الْهَاشِمِي أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد.

(2) هو أبو الفتح البستي المترجم له قريبا. وانظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 23/2.

[أقوال في البكاء على الشّباب]

ومن البكاء على الشّباب، وهو أبكى بيت قيل في فقده، ونُسب لأبي الغصن الأسديّ[1] :

أَتَأمُـلُ رَجْعَـةَ الـدُّنْيَا سَـفَاهاً ... وَقَدْ صَارَ الشَّبَاب إلى ذهَابِ

فَلَيْـتَ البَاكِيَـاتِ بكـلّ أَرْضٍ ... جُمِعْنَ لَنَا فَنُحْنَ عَلَى الشَّبَابِ

ومن أحسن ما قيل فيه قول محمّد بن حازم الباهليّ[2] :

لا تَكْـذِبَنَّ فمـا الـدُّنْيَا بأجمعِهـا ... مـن الشَّـباب بيَـوْمٍ واحـدٍ بَـدَلُ

شَرْخ الشّباب وإن أبقيتَ لي حزنا ... مـا جـدَّ ذكـرك إلا جّـدَّ لـي ثكـلُ

ولأبي العتاهية[3] :

فَيـا أَسَـفاً أَسِـفْتُ عَلـى شَـباب ... نَعـاهُ الشّـيب والـرّأس الخَضِـيبُ

عريـتُ مـنَ الشّـباب وكـان زينـا ... كمَـا يَعـرَى مـنَ الـوَرَقِ القَضِـيبُ

فيَـا لَيْـتَ الشّـباب يَعُـودُ يَوْمـاً ... فنخبِــرَهُ بمَــا فَعَــلَ المَشِــيبُ

---

(1) لم أقف على ترجمته. وانظر البيتين في زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 407/3.

(2) هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء، أبو جعفر (..– نحو 215هـ=..– نحو 830م). شاعر مطبوع. كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي. ولد ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 75/6.

وانظر البيتين في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 225/2.

(3) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية (130 – 211هـ= 748 – 826م). شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. وكان يجيد القول في الزهد والمديح. ولد في (عين التمر) بقرب الكوفة، ونشأ في الكوفة، وسكن بغداد. توفي فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 321/1.

وانظر الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 89/5.

وقال آخر[1] :

وَلَّى الشَّباب وَكُنتَ تَسْكُنُ ظلَّهُ   فَـانْظُرْ لِنَفْسِـكَ أيَّ ظـلٍّ تَسْـكُنُ؟
وَنَهَى المَشِيب عَنِ الصّبَا لَوْ أنَّهُ   يُـدْلِي بِحُجَّتِـهِ إلـى مَـنْ يُلَقّـنُ

ولبعضهم[2] :

لِـمَ لاَ تَتُـب وَقَـدْ أَلَـمّ نَـذِيرُ   للشِّـيب يُـؤذِنُ أَنَّـهُ سَيَسِـيرُ
أَمَّـا الشَّبَاب فَإِنَّـهُ عُـذْرٌ وَمَـا   لِلْمَـرْءِ بَعْـدَ الشَّـبَاب عَـذِيرُ

قال آخر[3] :

أَتَطْمَـعُ أَنْـتَ تَكُـونَ وَأَنْـتَ شَـيْخٌ   كَمَـا قَـدْ كُنْـتَ أَيَّـامَ الشَّـبَابِ
لَقَـدْ كَـذَبَتْكَ نَفْسُـكَ لَـيْس شَـيءٌ   جَدِيـدٌ كَالرِّثَـاتِ مِـنَ الثِّيَـابِ

وقال أيضاً[4] :

---

(1) هو ابن عبد ربه. وانظر البيتين في كتابه العقد الفريد : 362/2.
(2) لم أقف على البيتين في المصادر التي رجعت إليها، ولم أقف على اسم صاحبهما.
(3) هو الجاحظ. والذي وقف عليه من ألفاظ البيتين هو :

أتَرْجو أنْ تكونَ وأنْتَ شيـخٌ   كما قدْ كُنْتَ أيّامَ الشبـابِ
لقدْ كَذَبَتْكَ نَفْسُك، ليْسَ ثوبٌ   دَريسٌ كَالجديدِ مِنَ الثيابِ

انظر البيتين في حياة الحيوان الكبرى. أبو البقاء، كمال الدين الشافعي : 254/1.
(4) ينسب البيتان للحافظ ابن سهل بن غانم الأصفهاني، ولابن الرومي، وليموت بن المزرع. انظر البيتين في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 26/2.

مَـنْ شَـاب قَـدْ مَـاتَ وَهُـوَ حَـيٌّ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَشْيَ هَالِكْ

لَـوْ كَـانَ عُمْـرُ الفَتَـى حِسَـاباً لَكَـــانَ لَـــه شَـــيْبه فَـــذَلِكْ

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي[1] : عنّت لي جارة كاعب بطريق، فغازلتها، فمرّت، ولم تحفل، فتبعتها إلى باب دار شاهقة، فأخذت بعضادته، وكشفت عن وجه كالقمر، وقالت[2] :

الآنَ لمَّـا عَـلاَكَ المَشِـيب وَأَبْصَرْتَ فِي عَارِضَيْكَ القَتِيرَا

وَبَـانَ الشَّـبَاب بِلَذَّاتِـهِ فَـوَلَّى وَأَصْـبَحْتَ شَـيْخًا كَبِيـرًا

تَطَرَّبْتَ وَارْتَحْتَ لِلغَانِيَاتِ هَيْهَـاتَ حَاوَلْـتَ أَمْـرًا عَسِـيرًا

ثمّ دخلتْ. فانصرفتُ أخزى ممّن دخل النّار.

---

(1) هو أبو محمد إسحاق المعروف بابن النديم الموصلي (155 – 235هـ= 772 – 850م). من أشهر ندماء الخلفاء. تفرد بصناعة الغناء، وكان عالمًا باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، فارسي الأصل، مولده ووفاته ببغداد. انظر الأعلام. الزركلي : 292/1.

(2) لم أقف على الأبيات في المصادر.

[أقوال في تسمية الشّيب ضيفا]

ومن تسمية الشّيب ضيفًا قوله[1] :

أهْلاً وسهْلاً بضيفٍ نَزَلْ   وأَسْـتودِعُ اللهَ إلْفـاً رَحَـلْ

فأمَّا المَشِيب فصُبحٌ بَدَا   وأمَّـا الشَّـباب فَلَيْـلٌ أَفَـلْ[2]

وقوله[3] :

أَناخَ الشّيب ضيفاً لـم أرِدْهُ   ولكـن لا أُطيـقُ لـهُ مَـرَدَّا

رداء للــرَّدى فيــه دليــلٌ   يـردي مَـنْ بـه يومـاً تـردَّى

وقول النّاظم : "ضيف ألمّ" من قول المتنبّي[4] :

ضَيْفٌ ألَمَّ برأسِي غَيْرَ مُحْتِشم   السَّيفُ أحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ باللّمم

---

(1) ينسب البيتان لعلوي عالم.

(2) ويزداد حسن هـذين البيتين بالّذي قبلهما، وهو :

تَوَلَّى الشَّباب كَأَنْ لَم يَكُن   وَحَـلَّ المَشِيب كَأَنْ لَم يَزَلْ

كما يزيدهما حسنًا البيت الذي بعدهما، وهو :

سقَى اللهُ هـذا وذا مُنعماً   فنِعمَ المُوَلّي ونِعمَ البَــدَلْ

انظر الأبيات في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 23/2.

(3) البيتان للصَّاحِبِ بن عَبَّادٍ. انظر البيتين في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 160/1.

(4) انظر البيت في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 198/3.

الفاء و "إنّ" كلاهما لتعليل الحكم الّذي في البيت قبله يليه. وفي قوله : "أمّارتي" التفاتٌ؛ من التكلّم إلى الغيبة؛ لوضعه الظّاهر موضع المضمر، وفائدته ما في لفظ "أمّارتي" من التّعليل المناسب؛ لعدم الاتّعاظ، وتقدّم نظيره في "أَيَحسب الصَبُّ.." و "إنّ الحبّ.."، وللتوصّل به إلى تقديم المسند إليه المخبر عنه بالفعل؛ لإفادة تقوّي الحكم؛ الّذي هو عدم الاتّعاظ؛ لأنّ فيه الإسناد مرّتين؛ إسناد الفعل إلى الظّاهر وإلى ضميره؛ نحو : أنا قُمتُ. فإنّه أدلّ على القيام من : قمتُ، أو قمتُ أنا، إن جُعل "أنا" تأكيدًا للمستتر. وفي "نذير الشّيب والهرم" شبه التّوشيع؛ لأنّ "نذير" واقع موقع المثنّى؛ أيْ نذيرَيْ، إلاّ أنّ المضافَين إلى متضمّنَيهما إذا فرّقا، نختار فيهما لفظ الإفراد على لفظ التّثنية، كقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾[1].

وقال بعضهم : «إنّ لفظ "الهرم" معطوف على "نذير"، فلِذا لم يثنِّ نذيرًا؛ لأنّ مفسره واحد».

قلتُ : أمّا ما ذكره من العطف فاحتمال صحيح، وأمّا قوله : إنّما لم يثنّه؛ لأنّ مفسّره واحد، فمفهومه أن لو كان ما أضيف إليه اثنان لما أفرده، وليس كذلك كما قرّرت لك.

و «أل» في الشّيب إمّا للحقيقة أو للمبالغة؛ لأنّهما الكاملان في الإنذار. والتّنكير في "ضيف" للتّعظيم، ويحتمل أن يكون في قوله "برأسي"

---

(1) سورة المائدة : من الآية 78.

التفاتٌ من الغيبة إلى التّكلّم؛ أيْ برأسها، وإن عاد على ما عاد إليه ضمير "أمّارتي"، فلا التفات فيه. ووصف "ضيف" بالجملة الفعلية؛ لإفادة التّجدّد، ولا سِيَّما وهو يفشو شيئًا فشيئًا، نحو : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ﴾[1]، نصّ عليه الزّمخشري[2]. والتّعبير بـ "أمّارة"؛ لإفادة أنّ ذلك وصف ثابت لها. وكان "اتّعظت" و "أعدّت" ماضيَين؛ لإفادة أنّ المطلوب حصولهما واستعدادهما، لئلاّ يفجأ الأمر، وكانا فعلَين منفيَين لإفادة نفي ما هو ثابت منهما أحرى، ولأنّ ضدّهما - وهو أمرها بالسّوء - ثابت، فهما متجدّدان.

(1) سورة النساء : من الآية 56.

(2) انظر تفسيره الكشاف : 522/1.

اَلْبَيَانُ

الظّاهر أنّ تسمية النّفس أمّارة باعتبار ميلها إلى الشّهوات، وتوفّر دواعيها لديها، فتكون من باب الاستعارة بالكناية، ولا يخفى عليك تقريره لتقدّمه غير مرّة. وإسناد الاتّعاظ إليها يحتمل الحقيقة والمجاز؛ أيْ ما اتّعظ صاحبها، وكذا "جهلها" و "نذير الشّيب والهرم"؛ إمّا استعارة إن كان الإنذار مستفادًا منه؛ لمشابهته المنذور، وإمّا مجاز مرسل إن كان يلازم الإنذار من غيره.

"ولا أَعَدَّتْ مِن الفِعْلِ الجَمِيلِ"؛ إسناده أيضاً يحتمل الحقيقة والمجاز. وأمّا قوله : "قِرَى ضَيْف" فمجاز بليغ لا استعارة؛ لذكر طرفَي التّشبيه. وفي قوله : "ألمّ برأسي غير محتشم" إيغال؛ لأنّه لم يقتصر على تشبيهه بالضّيف حتّى وصفه بأنّه غير مُحتشم، كقولها : كأَنَّهُ علمٌ في رأسِهِ نارُ[1]. لم يُقتصر على تشبيهه بالعَلَم - وإن كان كافيا - حتّى زادت "في رأسه نار".

وأمّا وصف "الشّيب" بأنّه "غير محتشم"، فإن أُخذت القضيّة معدولة[2] فمجاز، وإن أُخذت على معنى السّلب فحقيقة، ولو أُثبت له الاحتشام لكان مجازًا.

---

(1) القول للخنساء ترثي أخاها صخرا، والبيت بتمامه :

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهداةُ بِهِ   كأنَّهُ علمٌ في رأسهِ نــارُ

انظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 139/7.

(2) المعدولة هي : القضية التي يكون حرف السلب فيها جزءًا لشيء، سواء كانت موجبة أو سالبة؛ إمّا من الموضوع، فتسمى معدولة الموضوع؛ كقولنا اللاحي جماد، وإما من المحمول، فتسمى معدولة المحمول؛ كقولنا الجماد لا عالم ، أو منهما جميعًا، فتسمى معدولة الطرفين؛ كقولنا اللاحي لا عالم. انظر التعريفات. الجرجاني : ص 282.

في البيتين عتاب المرء نفسه، وهما من المذهب الكلامي، ومِن حسن التّعليل ومِن حسن الاعتذار، وفي ألفاظ البيت الأوّل كلّها مراعاة النّظير، وخصوصًا في "الشّيب" و "الهرم"، وفيه الإرصاد، وفيه الطّباق لجمعه بين الأمر بالسّوء والاتّعاظ، وهما ضدّان، والاتّعاظ أيضاً يضادّ الجهل، وفي "ضيف" و "ألمّ" و "غير محتشم" مراعاة النّظير، وإن صلح مكان "محتشم" "منقصم" فهو من التّخيير.

الْإِعْرَابُ

جعل الأستاذ القصّار الفاء لتعقيب هذه الجملة الّتي هي كالشّاهد لحجّة بجمله "إنّي اتّهمت" الّتي هي الحجّة، وقدّمها لأنّها أهمّ عنده.

بالسّوء : متعلّق بـ "أمّارة". وجملة "ما اتّعظت" : في موضع رفع خبر "إنّ". وبنذير : يتعلّق بـ "اتّعظت"، وباءه للسّببية، وكذا "مِن جهلها"، و "مِن" فيه للتّعليل، وتقدّم هذا وغيره في التّفسير.

وجملة "ولا أعدّت.." : معطوفة على "ما اتّعظت".

و "مِن الفعل" : متعلّق بـ "أعدّت"، و "مِن" للتّبعيض على الأظهر.

وقِرَى : مفعول بـ "أعدّت".

وفاعل "ألمّ" : ضمير يعود على "الضّيف".

و "برأسي" : متعلّق بـ "ألمّ"، والباء للظّرفية، والجملة في موضع خفض نعت لـ "ضيف".

و "غير" : صفة لـ "ضيف"، وهو على غير الغالب؛ لأنّ الاسم إنّ نُعت بمفرد وجملة، قدّم المفرد وأخّرت الجملة غالبًا، فإن كان معها ظرف أو مجرور فيتوسّط؛ نحو : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾(1). ونظير ما هنا : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾(2). ويصحّ نصب "غير" على أنّه حال من فاعل "ألمّ"، وهو وإن كان مرجوحًا لعدم انتقاله، والحال منتقلة غالبًا، إلاّ أنّه يتخلّص به من سبقية النّعت بالجملة.

(1) سورة غافر : من الآية 28.

(2) سورة المائدة : من الآية 54.

الْإِشَارَاتُ

[التحفّظ من النّفس الأمّارة بالسّوء]

لمّا تقدّم في البيتين قبل هذين أنّ الإنسان ينبغي أن يقف مع الحقّ، ويتلقّى معنّفه في ذلك بما تقدّم، نبّه هنا على أنّه ينبغي له - مع ذلك - أن يتحفّظ من النّفس، وأن لا يرى لنفسه شفوقًا على مَن يعظه، فإنّ الواجب عليه أن يبدأ بنفسه : «**ابْدَأْ بِنَفْسِك، ثمّ بِمَنْ تَعُولُ**»[1]. ولا أقبح ممّن يأمر بالمعروف، ثمّ لا يأتمر، أو ينهى عن المنكر، ثمّ لا ينتهي: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾[2]. وللمتوكّل اللّيثي الكناني[3] - ويُروى[4] لسابق البربري[5]-:

---

(1) الحديث ورد في الصحاح بلفظ : «**ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَىْءٌ فَلأَهْلِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَىْءٌ فَلِذِى قَرَابَتِكَ فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِى قَرَابَتِكَ شَىْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا**». رواه مسلم عَنْ جَابِرٍ مرفوعا في الزكاة. باب الاِبْتِدَاءِ فِى النَّفَقَةِ بِالنَّفْسِ ثُمَّ أَهْلِهِ ثُمَّ الْقَرَابَةِ.

(2) سورة البقرة : الآية 44.

(3) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل الليثي. من شعراء "الحماسة"، وكناه المرزباني بأبي جهمة، وقال : كان على عهد معاوية، ونزل الكوفة. انظر الأعلام. الزركلي : 275/5.

(4) نسبها الزمخشري وأبو عبيد القاسم بن سلام والآمدي وأبو الفرج الأصبهاني إلى المتوكل بن عبد الله الليثي الكناني، ونسبها سيبويه للأخطل، ونسبها الحاتمي لسابق البربري، ونسبها ابن عساكر للطرماح. قال البغدادي : والمشهور أنه من قصيدةٍ لأبي الأسود الدؤلي. انظر خزانة الأدب. البغدادي : 567/8.

(5) هو سابق بن عبد الله البربري، أبو سعيد (..- نحو 100هـ=..- نحو 718م). شاعر، من الزهاد. له كلام في الحكمة والرقائق. وهو من مولي بني أمية. والبربري لقب له، ولم يكن من البربر. سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز، فيستنشده عمر، فينشده من مواعظه. انظر الأعلام. الزركلي : 69/3. ويزداد حسن هذه الأبيات بالبيت الذي قبلها، وهو : يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ هلاَّ لِنَفْسِكَ كانَ ذَا التَّعْلِيــمُ

إبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهها عَنْ غَيِّها فَإذا انْتَهَتْ عَنْه فَأَنْتَ حَكيمُ
فَهُنَاكَ يُقبَلُ إنْ وَعَظْتَ وَيُقتَدى بِالقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْليمُ
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

وفي الصّحيح الإخبار عن شدّة عذاب فاعل هذا، وأنّ أهل النّار يقولون له عندما يرون من عذابه : أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فيقول : بلى. ولكنّي كنت لا أأتمرُ ولا أنتهي[1]. فالواعظ يقول : أقول ما أقولُ، ولستُ عليه، فإنّ أمّارتي بالسّوء.. إلى آخره. وقد فعل هذا من شهد له الإله - ربّ العالمين - بالعصمة والإخلاص، وهو يوسف الصدّيق -صلوات الله وسلامه عليه - قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[2]. ومع هذا أظهر القصور، وقال بعدما بالغ في إظهار براءته : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[3]. فالمرء وإن اتّعظت نفسه الغاية، فليقل : ما اتّعظت؛ هضمًا لها، وتحريضًا على الزّيادة، ولذا يقول : ولا أعدّت من الفعل الجميل؛ لتستعد غاية وسعها منه قِرى ما ينزل بها من أضياف الآخرة،

---

(1) نص الحديث بتمامه هو : «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا لَكَ مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟ فَقَالَ : كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيه». رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ مرفوعا : 59/10. الحديث رقم : 7161. ورواه غيره، والحديث صحيح.

(2) سورة يوسف : من الآية 24.

(3) سورة يوسف : من الآية 53.

كالشّيب وغيره، ممّا لا يرتحل ولا يحتشم، فالكريم المستحيي الخائف من العار يعدّ لضيف الدّنيا، وإن كان غاية ما يستحقّ عنده ضيافة ثلاثة أيّام، ثمّ يرتحل فوق ما يقوم به فيها، فما عسى أن يكفي الإنسان المستحيي من ربّه، الخائف من عذابه، لأضياف لا يرتحلون عنه، ولا يحتشمون، إذ هم أضياف الآخرة الّتي لا تفنى. أعاننا الله على ما يقرّبنا إليه زلفى بمنّه.

فالعاقل لا يرضى عن نفسه، فإنّ النّفس أمّارة بالسّوء مكّارة، ولو رضي عنها عاقل، لرضي عنها الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم؛ يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم.

وقال ابن عطاء[1] في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾[2]؛ «أيْ ما أبرّئ نفسي بنفسي، إنّما أبرّئ نفسي بربّي».

وقال جعفر الصّادق[3]: «مَنْ لَمْ يَتَّهِمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ، وَلَمْ يُخَالِفْهَا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَجُرَّهَا إِلَى مَكْرُوهِهَا.. كَانَ مَغْرُورًا، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ منها، فَقَدْ أَهْلَكَهَا»[4].

---

(1) قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: كَانَ ابْنِ عَطَاءٍ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الصُّوفِيَّةِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ أيْ بغداد. انظر تفسير القرطبي: 168/9.

(2) سورة يوسف: من الآية 53.

(3) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله، الملقب بالصادق (80 – 148هـ= 699 – 765م). كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. ولقب بالصادق لانه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس وكان جريئًا عليهم صدّاعًا بالحقّ. مولده ووفاته بالمدينة. انظر الأعلام. الزركلي: 126/2.

(4) القول ينسبه الكثير إلى أبي حفص الحداد. انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 283/1.

وقيل[1] : «النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ، وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بحسن الْأَدَب ومُلَازَمَتِهِ، فَالنَّفْسُ تَجْرِي على طَبْعِهَا فِي مَيْدَانِ الْمُخَالَفَةِ، وَالْعَبْدُ يَرُدُّهَا بِجَهْدِهِ عَنْ سُوءِ البطالة[2]، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ الجُهْدِ، فَقَدْ أَطْلَقَ عِنَانَ النَّفْسِ، وَغَفَلَ عَنْ الرِّعَايَةِ»[3].

وقال أبو حفص المفسّر[4] : «النَّفْسُ ظُلْمَةٌ كُلُّهَا، وَسِرَاجُهَا سِرُّهَا، وَنُورٌ سِرَاجُهَا التَّوْفِيقُ، فَمَنْ لَم يَصْحَبْهُ فِي سِرِّهِ تَوْفِيقٌ مِنْ رَبِّهِ، كَانَتْ ظُلْمَةٌ كُلُّهَا»[5].

وقال سَهْل[6] : «النَّفْسُ الأَمَّارَةُ لَيْسَ لَهَا فِي الإِخْلَاصِ نَصِيبٌ، وَلِلنَّفْسِ ثَلاَثَةُ أَعْوَانٍ : الشَّيْطَانُ؛ لِقَوْلِهِ تعَالَى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾[7]. ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾[8]. وَالدُّنْيَا؛ لِقَولِهِ تَعَالَى :

---

(1) القول منسوب لابن عطاء.

(2) في المطبوع من بريقة محمودية : "المطالبة" بدل "البطالة".

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 283/1.

(4) هو أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد من قرية يقال لها كورداباذ على باب مدينة نيسابور، على طريق بخارى. كان أحد الأئمة والسادة. مات سنة نيّف وستين ومائتين. انظر ترجمته في الرسالة القشيرية. القشيري: 69/1.

(5) انظر القول في الرسالة القشيرية. القشيري : 220/1.

(6) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أبو محمد (200 - 283هـ= 815 - 896م). أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الاخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. له كتاب في (تفسير القرآن) مختصر. وكتاب (رقائق المحبين) وغير ذلك. انظر الأعلام. الزركلي : 143/3.

(7) سورة البقرة : من الآية 268.

(8) سورة فاطر : من الآية 6.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[1]. وَالهَوَى؛ لِقَوْلِه تَعَالَى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[2]. وَلَيْسَ إلاَّ نَاصِرٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ العَقْلُ، وَالكُلُّ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ اللهِ، وَأُولَئِكَ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، وَالعَقْلُ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَالقَضَاءُ مُصَيْطِرٌ عَلَى الكُلِّ، يَفْصِلُ بَيْنَ تَنَازُعِهِمْ، وَيَمْضِي بِكُلِّ أَحَدٍ إِلَى مَا كُتِب لَهُ لاَ مَحَالَةَ». ولبعضهم[3] :

إِبْلِيسُ وَالدُّنْيَا عَدُوَّانِ لِي ... وَهَا أَنَا بَيْنَهُمَا حَائِرُ
وَمَنْ يَنْتَصِرْ بِالله سُبْحَانَهُ ... فَإِنَّ مَوْلاَهُ لَهُ نَاصِرُ
فَاصْبِرْ وَكُنْ مُحْتَسِبًا إِنَّمَا ... وَلِيُّهُ المُحْتَسِبُ الصَّابِرُ
وَلَعَلَّ ذِي العَرْشِ إِلَى مُذْنِب ... بِرَحْمَةٍ تَشْمَلهُ نَاظِرُ

وقال بعض الأئمّة : «الآفاتُ ثَلاَثَةٌ : عذاب الدّنْيا، وهَوَى النّفسِ، وأهوالُ القيامَةِ. والنّجاةُ مِن الثّلاثَةِ مُتعلّقةٌ بالرّحمةِ؛ قال الله تعالى : ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[4]. وفي الثّانية : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾[5]. وفي الثّالثة : ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾[6]».

---

(1) سورة لقمان : من الآية 33.

(2) سورة الجاثية : من الآية 23.

(3) لم أقف على هذه الأبيات ولا على قائلها في المصادر.

(4) سورة هود : من الآية 43.

(5) سورة يوسف : من الآية 53.

(6) سورة الدخان : من الآية 41 و 42.

وهذه الآية أَزَالَتْ نَومَ العَابدينَ، فكَذَا لاَ يَنجُو مِن آفاتِ النّفسِ إلاّ مَن رَحِمَ اللهُ، فَليسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُزكِّي نَفسَه، لأنَّ نَفْسَ الآدَمِيّ طُبِعَتْ عَلى الهَوَى وَالشّهْوَةِ، فَلاَ تَأمُرُ إلاَّ بِالسُّوءِ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[1]. ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾[2].

نجّانا الله من فتن الدّنيا المضلّة ومهالك الآخرة، بفضله ومنّه ورحمته.

(1) سورة النجم : من الآية 32.

(2) سورة النساء : من الآية 49.

لَـوْ كُنْـتُ أَعْلَـمُ أَنِّـي مَـا أُوَقِّـرُهُ كَتَمْـتُ سِـرًّا بَـدَا لِـي مِنْـهُ بـالكَتَمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا كَمَـا يُـرَدُّ جِمَـاحُ الخَيْـلِ بـالُّلُجُمِ

شَرْحُ الْغَرِيْبِ

العِلْم : المعرفة، عَلِمْتُ الشَّيء – بالكسر – أعلَمُهُ عِلْماً : عرفته.

[حدّ العلم عند أهل الأصول]

وحدّه أهل الأصول بحدود أصحّها أنّه : «صِفَةٌ تُوجِبُ تَمْيِيزًا لاَ يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ»[1].

وعالَمْتُ الرّجل فعَلَمْتُهُ أعْلُمُهُ – بالضمّ – : غلبته بالعِلمِ. ورجلٌ علاَّمَةٌ : عالِمٌ جدًّا، الهاء للمبالغة.

قال الجوهري : «كأنّهم يريدون به داهيةً. واسْتَعْلَمني الخبر فأَعْلَمْتُهُ إياه.. وعلَّمْتُهُ الشَّيء فتَعَلَّمَه، وعلَّمْتُهُ فتَعَلَّمَ، وليس التّشديد هنا للتّكثير. ويقال : تَعَلَّمْ، بمعنى إعْلَمْ. قال ابن السّكّيت : تَعَلَّمتُ أنّ فلاناً خارجٌ، بمنزلة عَلِمْتُ. وإذا قال : اعْلَمْ أنّ زيدا خارج. قلتَ : قد عَلِمْتُ. وتَعْلَم أنّ زيدا خارج. لم يُقل : قد تعلّمت. وتَعَالمَهُ الجميع؛ أيْ عَلِموه»[2].

---

(1) انظر رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب. السبكي : ص 265. إرشاد الفحول. الشوكاني : 20/1.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1991/5. مادة علم.

وقال النّحاة : «إذا كان العلم بمعنى المعرفة تَعَدّى لواحد، وبمعنى اليقين لاثنين»[1].

وقوله : "أعلمُ" يحتملهما، إلاّ أنّ الأظهر كونه لليقين.

أُوَقِّرُه : أعظّمه، والتّوقيرُ : التّعظيمُ، والتّرزينُ أيضاً. وقوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[2]؛ أيْ لا تخافون لله عظمةً؛ عن الأخفش. ورجل مُوَقَّرٌ؛ أيْ مُجَرَّبٌ. والتّيقُور : الوَقَار، أَصله وَيْقُور[3]. قال العجاج[4] :

فإنْ يكنْ أَمْسَى البِلى تَيْقُوري   بَعْدَ شَبَاب عَبْعَب[5] التَّصْوِيرِ

أيْ وَقَاري.

ومن المادّة الوَقَار : وهو الحِلم والرّزانة. وَقَرَ الرّجل يَقِرُ وَقاراً وقِرَةً، فهو وَقُور[6].

كَتَمْتُ الشّيء كَتْمًا وكِتْمَانًا : أَخْفَيْتُه، وتقدّم تمامه.

السرّ : الشّيء المَكتوم، وجمعه أَسْرَار، والسّرِيرَة مثله، والجمع السّرائِر، وتقدّم تمامه.

---

(1) انظر المصباح المنير. الفيومي : 427/2.

(2) سورة نوح : الآية 13.

(3) أيْ قلبت الواو تاء.

(4) هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن صخر السعدي التميمي، أبو الشعثاء، العجاج (.. - نحو 90هـ= .. - نحو 708م). راجز مجيد، من الشعراء. ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها. ثم أسلم، وعاش إلى أيام الوليد بن عبدالملك. وهو أول من رفع الرجز. وكان لا يهجو. انظر الأعلام. الزركلي : 86/4.

(5) العبعب هو الضخم.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 848/2. مادة وقر.

بَدَا الأمرُ يَبْدُو بُدُوّا، كقَعَدَ قُعُودًا؛ أيْ ظَهَرَ. أبْدَيْتُهُ : أَظْهَرْتُه. وقوله تعالى : ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾[1]؛ في قراءة من لم يهمز؛ أيْ ظاهره، وعند من همز؛ أيْ أوّله[2].

والكَتَم بالتّحريك : نبت يخلط بالوَسْمة، ويُختضب به؛ قاله الجوهري[3].

وسمعتُ مَن يقول : هو الشّجر المسمّى بالمَثْنَان[4]، وسمعتُ فيه غير ذلك ممّا لا أثق به.

الجِمَاحُ : مصدر جَمَحَ الفرس جِماحاً وجُموحاً؛ إذا اعْتَزَّ فارِسَهُ وغلبَه، فهو فرسٌ جَموحٌ. وجَمَحت المرأةُ من زوجِها : خرجت مِن بيته إلى أهلها قبل أنْ يطلّقها. والجَموحُ من الرّجال : الّذي يركب هواه فلا يُمكن رَدُّه. وجَمَحَ؛ أيْ أسرع. وبه فسّر أبو عبيدة : ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾[5].[6]

---

(1) سورة هود : من الآية 27.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2278/6. مادة بدا. قرأ أبو عمرو ونصير عن الكسائي ﴿بَادِئَ﴾ بالهمز. وقرأ الباقون ﴿بَادِيَ﴾ بغير همز. انظر المبسوط في القراآت العشر. النيسابوري : ص 238.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2019/5. مادة كتم.

(4) المَثنان هو : نبات ينبت على شكل شجيرات صغيرة تحت أشجار الغابات، في السهول الرملية، وهو من النباتات النافع جداً لعلاج أدوار البرد والأنفلونزا، ويقي من الإصابة بمرض السكري، كما أن له فوائد في تثبيت الحمل، نظراً لكثرة ما يتم تداوله حول تلك العشبة وخصوصاً لدى السيدات الراغبات في الحمل.

(5) سورة التوبة : من الآية 57.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 360/1. مادة جمح.

قال الأزهري[1] : «الجُمُوح له معنيان : أحدهما : ما لا يُثنيه شيء، فهو من الجِماح الّذي يُردّ منه بالعَيب. والثّاني : النّشيط السّريع، وهو ممدوح»[2]. ومنه قول امرئ القيس، وكان من أعرف النّاس بالخيل، وأوصفهم لها[3] :

جَمُوحاً مَرُوْحاً وإحضارُها كمَعْمَعَةِ السَّعَفِ المُوْقَدِ

والردّ : مصدر رَدَّهُ عن وجهه يَرُدُّهُ رَدّاً ومَرَدًّا : صَرَفَه؛ ومنه : ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[4].

ويحتمل أن يكون من ردّ عليه الشّيء؛ إذا لم يقبله، أو خَطَّأه.

ورَدَّهُ إلى منزله. ورَدَّ إليه جواباً : رجع. والمَرْدُودة : المطلّقة، والموسى أيضاً؛ لردّها في نِصَابِها. والمَرْدُود : الرَدُّ؛ مصدر كالمعقول[5].

---

(1) هو محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (282 - 370هـ= 895 - 981م). أحد الأئمة في اللغة والأدب، مولده ووفاته في هراة بخراسان. عني بالفقه فاشتهر به أولا، ثم غلب عليه التبحر في العربية، فرحل في طلبها وقصد القبائل وتوسع في أخبارهم. انظر الأعلام. الزركلي : 311/5.

(2) انظر تهذيب اللغة. الأزهري : 101/4. مادة جمح.

(3) انظر البيت بلفظه في تهذيب اللغة. الأزهري : 101/4. وكمعمعة : صوت النار. والسّعف: جريدة النخل. ونصه في ديوان امرئ القيس :

سَبُوحاً، جَمُوحاً، وَإِحْضارُها كَمَعْمَعَة السَّعَفِ المُـــوقَدِ

انظر ديوانه : ص 88.

(4) سورة الرعد : من الآية 11.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 473/2. مادة ردد.

مِن غَوَايتِها : من ضلالها - بفتح الغين -، والغيّ الضّلال والخيبة، وغَوي – بالفتح - يَغْوي غَيًّا وغَوايَةً، فهو غاوٍ وغوٍ، وأغْواهُ غيره، فهو غَوِيٌّ على فَعيلٍ. قال الأصمعيّ : «لا يُقال غيره»، وأنشد للمرقّش[1] :

فَمَنْ يَلْقَ خَيراً يَحْمَدِ النّاس أمْرَهُ   ومَن يَغو لا يَعْدَمْ على الغَيّ لائِما

ولدُريد بن الصِمَّة[2] :

وهـل أنـا إلاّ مـن غَزِيَّـةَ إن غَـوَتْ   غَوَيْتُ، وإن تَرشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

والتَغاوي : التجمُّع والتّعاون على الشرّ، من الغَوايَةِ أو الغَيّ. ومنه : «تَغَاوَوا عَلَى عُثْمَانَ[3] فَقَتَلُوهُ»[4].

ويحتمل أن يكون ما في البيت بالمعنى لا بالتّصريف من الغَوْي مصدر غَوِيَ الفصيل بالكسر؛ قال ابن السّكيت : «إذا لم يروَ من لبن أمّه

(1) هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك المرقش الأصغر (..- نحو 50 ق هـ=..- نحو 570م). شاعر جاهلي، من أهل نجد. كان أجمل الناس وجها ومن أحسنهم شعرًا. وهو ابن أخي المرقش الأكبر. أشهر شعره حائيته، وهي إحدى المجمهرات. انظر الأعلام. الزركلي : 16/3.

(2) هو دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن (.. - 8هـ= .. - 630م). شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية. وعاش حتّى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين، والصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث. انظر الأعلام. الزركلي : 339/3.

(3) أيْ عثمان بن عفان الخليفة الراشد. وقد سبقت ترجمته.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2450/6. مادة غوي.

ولا من اللّبن حتّى يموت هُزالاً». وقال غيره : «هو أن يشرب من اللّبن حتّى يَبْشَمَ ويفسد جوفه»[1].

الخيل : قيل : اسم جمع، واحده فرس من غير لفظه، وقيل : جمع خَائِل.

قلتُ : كرَاكِب ورَكْب، وعَائِد وعَوْد، ونَائِحَة ونَوْح.

والخَيْل أيضاً : الخُيول، ومنه : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾[2]. والخَيْل : الفُرْسَان؛ ومنه : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾[3]. والخَيَّالَة : أَصْحَاب الخَيْل[4].

واللُّجُمِ : جمع لِجامُ، وهو فارسيّ معرَّب. واللّجام أيضاً : ما تشدُّ به الحائض. وفي الحديث : «**تَلَجَّمي**»؛ أيْ شدِّي لِجاماً. كقولهم : اسْتَثْفِري. وجاء فلان وقد لفظ لِجامه؛ إذا انصرف مِن حاجته مجهوداً من الإعياء والعطش، كما يُقال : جاء وقد قرض رِباطه[5].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2450/6. مادة غوي.

(2) سورة النحل : من الآية 8.

(3) سورة الإسراء : من الآية 64.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1691/4. مادة خيل.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2027/5. مادة لجم.

التَّفْسِيْرُ

[الاعتذار عن عدم قبوله نصح الشّيب]

لمّا بيّن أنّ نصيح الشّيب لا ينبغي أن يُهمل نصحه، ويجب قبوله؛ لقوله : "والشّيب أبْعَدُ.."، واعتذر عن عدم قبوله، وهو بقوله : "فإنّ أمّارتي"؛ أيْ لم تحملني على مخالفة وعظه إلاّ النّفس الأمّارة.. وإلاّ فقد كنتُ أرتقب حلوله ونزوله، واعتقدت أنْ ألقاه بما يليق به، وهكذا شأن المؤمن، فإنّه وإن كان في غاية الانهماك في المعاصي، فإنّه يأمل التّوبة ويوطن على استدراك ما فاته، ولهذا وشَبَهِهِ كانت نيته خيرًا من عمله[1]، فكانت نية النّاظم أن يقلع عند حلول الشّيب به، ويشتغل بالعبادة.

ويعدّ الشّيب من أقوى الاحتجاجات على من يريده من نفس أو غيرها، على ما كان عليه قبله من البطالة، ويعتذر له بظهوره، فيقول : ما يحسن بي الآن ما تقدّم؛ لظهور الشّيب فيَ : أَطَرَباً وأنتَ قِنّسرِيُ؟![2] وهذه النيّة في الشّيب تستلزم فرحه به، وأن لا يغيّره، فلمّا لم يتم له مُناه، ولم يطابق فعله بعد ظهوره ما نواه؛ لغلبة النّفس الأمّارة إيّاه، حتّى استحلى حاله الأولى، واستمرّ على هواه، ورأى من سوء العتاب وتقبيح الفعال من النّاس ما لم يكن قبلُ رآه، ندم على أن لا يكون كتمه عند ظهوره وأخفاه، فقال : لو كنت أعلمُ؛ أيْ أعرف أو أتيقّن قبل نزول

---

(1) يشير إلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ». رواه الطبراني في الكبير عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعا : 185/6. رقم الحديث : 5942. ورواه غيره. وفي سنده مقال.

(2) القول للعجاج، وسبق توثيقه، والبيت بتمامه :

أَطَرَباً وأنتَ قِنّسرِيُ؟!   وَإنما يأْتي الصِّبَا الصَّبيُ!

الشّيب أنّي ما أوقّره؛ أيْ أعظّمه، وأترك فعل القبيح استحياءً منه، كما نويتُ قبل نزوله، "كَتَمْتُ سِرًّا"؛ أيْ لكنت كتمتُ؛ أيْ أخفيت، ما بدا لي منه؛ أيْ من الشّيب، أوّل مرّة؛ بأنْ أخضبه بالكَتَم أو غيره ممّا يُخفيه، وعبّر عمّا بدا له أوّلا من الشّيب بالسرّ؛ لأنّه قبل ظهوره خفيّ، كحديث النّفس الّذي لم يظهر، أو لأنّه منذر بقرب أجله الّذي كان خفيًّا، فإذا ظهر، فأوّل مطّلع عليه غالبًا صاحبُه، لاهتمامه بشأن نفسه أكثر ممّا يهتم به غيره، فلِذا قال : "لي".

فليس قوله : "لي" كالمستغني عنه على ما زعم بعضهم؛ قال : «ولا معنى له لولا الوزن، فإنّ المستقبح منه ما يبدو لغيره، فيلومه عليه، لا ما يبدو له». انتهى.

قلتُ : وإذا فهمتَ ما قدّمتُ لك، علمتَ أنّه لا بدّ من ذكره. ويحتمل عكس هذا، وهو أنّه لمّا كان محلّ ما يبدو فيه الشّيب أوّلا في الغالب كالرّأس واللّحية، لا يتمكّن من النّظر إليه صاحبه، وإنّما يراه غيره، فإذا عذله لاحٍ على هواه بعد الشّيب، اعتذر له بأنّه لم يظهر له هو أوّلا، يصدّقه، أو يقول له لمّا لم يبدُ لي، فهو من القلّة بحيث لا يلزمني مراعاته، ولا احتشمُ منه حتّى أراه، وذلك كلّه لفرط الهوى، وهذه الإخبارات بمثابة مَن يخبر بأنّ الضّيف نازل به، ولم يره هو، فإنّ من لا يراعي حقّ الأضياف - لبُخله - يسوّف ويعتذر بأدنى عُذر يمكنه؛ لرفع اللاّئمة عنه، فإذا شافهه الضّيف، ولم يقم بحقّه، سلّم حينئذٍ لمن نَسَب له اللّوم، وانقطع عذره، فيكون المعنى حينئذٍ : كتمتُ سرّا بدَا لي، وهو الّذي يقطع عُذري، لأنّي لمّا لم أرَه، فقد خفي عنّي كالسرّ.

ولمّا لم يُثْن هوى نفسه ومضيّها قُدُمًا فيه على وجهها عنانُ واعظ الشّيب، استفهم عمّن يتكفّل له بردّ جماحها، فقال : من لي بردّ؛ أيْ من يتكفّل لي ويتفضّل عليّ بردّ جماح؛ أيْ قوة واعتزاز أو إسراع، من ضلالة نفسي، ردّا كردّ جماح الخيل باللّجم القويّة، لا كعنان واعظ الشّيب. والظّاهر أنّ النّاظم إنّما أراد الجماح المعيب، إذ هو اللاّئق بحال المبالغة.

قال بعضهم : «وتخيّل النّاظم الأمّارة الجامحة في غيّها مركوبًا للمطمئنّة غَلَبَ راكبه».

قلتُ : والمطمئنّة لا يكون مركوبُها الأمّارة، لِمَا قرّرتُ لك قبلُ، بل الّذي تخيّل النّاظم راكبًا الأمّارة ومركوبًا بالغواية، وهو في غاية الظّهور.

فَائِدَةٌ

[توقير الشّيب]

في قوله : "لو كنتُ أعلمُ أنّي ما أُوَقِّرُهُ" تنبيه على وجوب توقير الشّيب؛ لأنّ الله - سبحانه وتعالى - سمّاه وقارا، لِما جاء أنّ أوّل من رأى الشّيب إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - حين رآه، فقال : ما هذا يا ربِّ؟ فقال : وقارٌ. فقال : يَا رَبِّ زِدْنِي وَقَارًا. فأصبح وقد عمّه الشّيب[1].

---

(1) رواه مالك في الموطأ عنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ. في صفة النبي صلى الله عليه وسلم. بَاب مَا جَاءَ فِي السُّنَّةِ فِي الْفِطْرَةِ. ورواه غيره. والأثر يصح مقطوعا وموقوفا. ولم يصح مرفوعًا.

[حكم الخضاب]

وقد اختلف العلماء هل الأفضل تركه أو ستره بالخضاب، أو الفرق بين الحاجة إلى الخضاب عند إظهار التقوّي والإرهاب للعدوّ، فيكون أفضل، وبين عدم الحاجة إليه، فيكون تركه أفضل، وعليه يدلّ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أَبي قُحَافَةَ حين أُتي به إليه يوم الفتح ورأسه كَالثَّغَام : «أَلاَ غَيَّرتُمْ هَذَا بِشَيءٍ»[1]. وقول عليّ رضي الله عنه في الخضاب : «كَانَ ذَلِكَ والإِسْلاَمُ قُلٌّ، وَأَمَّا الآنَ.. فَامْرُؤٌ وَمَا اخْتَارَ»[2]. يدلّ على الإباحة، وكره مالك[3] ستره بالسّواد[4].

---

(1) رواه الطبراني في الكبير عن جابر مرفوعا : 40/9. رقم الحديث : 8324. ورواه غيره. وإسناده حسن.

(2) انظر شرح نهج البلاغة. ابن أبي الحديد : 122/18. وورد بلفظ : «ذلك والدين قلّ، فأمّا الآن وقد اتسّع نطاقه، وضرب بجرانه، فامرؤ وما اختار».

(3) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله (93 - 179هـ= 712 - 795م). إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الاربعة، مولده ووفاته في المدينة. كان صلبا في دينه، بعيدا عن الأمراء والملوك، وُشي به فضربه سياطا انخلعت لها كتفه. انظر الأعلام. الزركلي : 257/5.

(4) انظر آراء العلماء في الخضاب في التمهيد. ابن عبد البر : 80/21 وما بعدها.

[أقوال في كتم سرّ الشّيب بالخضاب]

وممّا قِيل فيما قصد النّاظم من كتم سرّ الشّيب بالخضاب؛ باعتبار كَتْمه عن ذي الشّيب وعن غيره قول بعضهم[1] :

شَيْب وَالنَّفْسُ فَتَاةٌ وَالفَتَى ... نَفْسُهُ أَدْعَى إِلَى دَعْوَى الكَرَمِ

فَتَرَامَيْتُ إِلَى صَوْب الصِّبَا ... وَكَتَمْتُ الشَّيْب فِي قَلْب الكَتَم

كَيْفَ لاَ أُطْفِىءُ مِنْ نُور بِهِ ... تُبْصِرُ الأَعْيُنُ تَقْصِيرَ الهِمَمِ

وقول عبدان الأصبهاني[2] :

فِي مَشِيبِي شَمَاتَةٌ لِعِدَاتِي ... وَهوَ نَاع منُغَّصٌ لِحَيَاتِي

وَيعيب الخضاب قومٌ وفيه ... لِيَ أُنْسٌ إلى حُضورِ وَفاتِي

لا وَمنْ يَعلمُ السَّرائرَ مِنِّي ... ما بِهِ رُمتُ خُلَّةَ الغانياتِ

إنّما رُمتُ أن أغيّب عنّي ... ما تُرينيهِ كلّ يَومٍ مِرَاتِي

وهُوَ ناع إليّ نَفسي وَمنْ ذا ... سَرّه أنْ يَرَى وُجوهَ النُّعاةِ

وقال آخر[3] :

قَالَتْ أَرَاكَ خَضَبْتَ الشَّيْبَ. قُلْتَ لَهَا ... سَتَرْتُهُ عَنْكِ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي

فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ مِنْ تَعَجُّبِهَا ... تَكَاثَرَ الغِشُّ حتّى صَارَ فِي الشَّعْرِ

---

(1) لم أقف على الأبيات في المصادر التي رجعت إليها، ولم أقف على اسم صاحبها.

(2) هو عَبْدَانِ الإصبهاني الْمَعْرُوف بالخوزي. وهُوَ على سِيَاقَة المولدين وَفِي مُقَدّمَة العصريين خَفِيف روح الشّعْر ظريف الْجُمْلَة وَالتَّفْصِيل كثير الْملح والظرف. وانظر الترجمة والأبيات في يتيمة الدهر. الثعالبي : 350/3.

(3) هو ابن طباطبا العلوي. وانظر البيتين في زهر الأكم. اليوسي : 115/3.

[أقوال في ذمّ الخضاب]

وقال في ذمّ الخضاب : أنشد ابن الأنباري عن أبيه[1] :

رَأَيْتُ الشَّيْبَ تَكْرَهُهُ الغَوَانِي ... وَيَحْبَبْنَ الشَّبَاب لِماَ هَوِينَا

فَهَذَا الشَّيْب تَخْضُبُهُ سَوَاداً ... فَكَيْفَ لَنَا فَنَسْتَرِقُ السِّنِينَا

وقال شميم الحلبي[2] :

أقُولُ لآمِرَةٍ بِالخِضَاب ... تُحَاوِلُ رَدَّ الشَّبَاب النَّضِيرِ

أَلَيْسَ المَشِيب نَذِير الإلهِ ... وَمَنْ ذَا يَسَوِّدُ وَجْهَ النَّذِيرِ؟

وقال ابن الرّومي[3] :

يَا أَيُّهَا الرَّجلُ المُسوِّدُ شَيْبَهُ ... كَيْمَا يُعَدُّ بِهِ مِنَ الشُّبَّانِ

أَقْصِرْ فَلَوْ سَودْتَ كُلَّ حَمَامَةٍ ... بَيْضَاءَ مَاعُدَّتْ مِن الغِرْبَانِ

---

(1) هو القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، أبو محمد (.. - 304هـ= .. - 917م). علامة بالأدب والأخبار. من أهل الأنبار. سكن بغداد. له تصانيف، منها (شرح المفضليات). انظر الأعلام. الزركلي : 181/5.
وانظر البيتين في الأمالي. أبو علي القالي : 112/1.

(2) هو علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت الحلبي، أبو الحسن المعروف بشميم (.. - 601هـ= .. - 1204م). شاعر، من العلماء بالأدب. من أهل الحلة المزيدية، نشأ ببغداد، وسافر إلى الشام وديار بكر. واستوطن الموصل، فتوفي بها، جمع كتابا من نظمه سماه "الحماسة" مرتبا على أبواب الحماسة لأبي تمام. انظر الأعلام. الزركلي : 274/4.
ولم أقف على الأبيات في المصادر.

(3) انظر البيتين في في الأمالي. أبو علي القالي : 281/2.

وقال أبو الفضل الميكالي[1] :

قَدْ أَبَى لِي خِضَاب شَيبي فُؤادٌ   فِيه وجدٌ بِكَتْمِ سِرّي وُلُوعُ
خَافَ أَنْ يُحدِثَ الخِضَاب نُصُولاً   ونصولُ الخضَاب سرٌّ بَدِيعُ

ونُدب أعرابي إلى الخضاب، ففعل مرّة، ثمّ ترك، فقيل له : لِم تركته؟ فقال : يا هناه، لقد شدّ لحياي، فجعلتُ أخالني ميتًا[2].

وقال كشاجم يجمع بين إخفاء الشّيب وإظهاره، وأحسن غاية[3] :

نظرتُ إلى المِرآةِ فروَّعَتنِي   طلائع شَيْبَتَينِ أَلَمَّتَا بِي
فأَمَّا شيبَةٌ فَفَزَعْتُ مِنْهَا   إلى المقراضِ من حُبّ التّصَابِي
وأمَّا شَيبَةٌ فَصَفحتُ عَنهَا   لتشهدَ بالبَراءَةِ من خِضَابِي
فَيَا لَكَ من مَشِيب قَدْ تبدّي   أَقَمْتُ بِهِ الدَّلِيلَ عَلى شَبَابِي

---

(1) هو عبيدالله بن أحمد بن علي الميكالي، أبو الفضل (.. - 436هـ= .. - 1045م). أمير، من الكتاب الشعراء. من أهل خراسان. صنف الثعالبي "ثمار القلوب" لخزانته. وأورد في (يتيمة الدهر) محاسن من نثره ونظمه. انظر الأعلام. الزركلي : 191/4.
وانظر البيتين في يتيمة الدهر. الثعالبي : 440/4.

(2) انظر الكامل. ابن المبرد : 128/2.

(3) هناك من ينسب هذه الأبيات لابن الرومي. انظر زهر الآداب وثمر الألباب. القيرواني : 302/1.

إنّما عبّر بـ "لو" دون "إنْ"؛ لأنّ "لو" للشّرط في الماضي، والمعنى : لو كنتُ علمتُ فيما مضى.. لأنّ المضارع الّذي تتعلّق به "لو" يصرف إلى الماضي. وأمّا قوله : "ما أوقّره" فالظّاهر أنّ الفعل بعد "ما" مستقبل، خلاف ما يقوله أكثر النّحاة إنّها لنفي الحال، ورأى ابن مالك[1] أنّها قد تأتي لنفي المستقبل؛ كقوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيَّ﴾[2]. وكقول النّابغة[3] يمدح النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

لهُ نافلاتٌ ما يُغِب نوالُها وَلَيْسَ عَطاءُ اليومِ مانعَهُ غَدَا

---

(1) هو محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجيّاني، أبو عبد الله، جمال الدين (600 – 672هـ= 1203 – 1274م). أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه (الألفية) في النحو. انظر الأعلام. الزركلي : 233/6. وانظر رأيه في كتابه شرح تسهيل الفوائد : 23/1.

(2) سورة يونس : من الآية 15.

(3) صاحب البيت هو أعشى بني قيس، وهو ميمون بن قيس بن جندل، (..– 7هـ=..– 629م). من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات. عاش عمرا طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم. ولقّب بالأعشى لضعف بصره. وعمي في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية (منفوحة) باليمامة قرب مدينة (الرياض) وفيها داره، وبها قبره. انظر الأعلام. الزركلي : 341/7. والبيت ورد شطره الأوّل بهذا اللفظ في بعض المصادر منها شرح شواهد المغني.السيوطي : 704/2. ولكنه ورد في كثير من المصادر منها ديون الأعشى بلفظ : لَهُ صدقاتٌ مَا تغب ونائلٌ.. البيت. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 70/18.

وقال أبو ذؤيب[1] :

أودَى بنيَّ وأعقَبوني حَسرةً عند الرُّقاد وعَبرةً ما تُقلعُ

فهو يقول : لو علمت فيما مضى أنّه لا يكون منّي توقير في المستقبل "كتَمْتُ"، وإنّما لم يقل : لا. وإن كانت تخلص المضارع للاستقبال عند غير ابن مالك أيضاً، لأنّها موهمة لنفي التّأبيد، بخلاف "ما"، ولا يصحّ حمل "ما" هنا على الحال، لأنّه كان يجب أن يقارن الفعل الّذي بعد "لو" المجعول ماضيًا، وهو محال، لأنّهما لا يجتمعان، ولأنّه إن لم يوقّره في الحال لم يحسن نفي علمه، لأنّ "لو" حرف امتناع، وهو معنى النّفي.

فإن قلتَ : معناه: لو علمت أنّي ما أوقّره حال وقوعه.

قلتُ : هذا هو حقيقة الاستقبال.

والتّنكير في "سرّا" إمّا للنّوعية أو للتّعظيم. وفي قوله : "لي" احتراس كما تقدّم، أو هو من البيان بعد الإجمال، فهو من باب الإطناب؛ نحو : ﴿ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾[2].

---

(1) هو أبو ذُؤَيْب الهُذَلِّي وقد سبقت ترجمته. وانظر البيت في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 163/2.

(2) سورة طه : من الآية 25 والآية 26.

[فائدة الإطناب]

وفائدته: علمُ الشّيء إجمالاً ثمّ تفصيلاً، أو الاستلذاذ بعينه بعد الإياس منه، فتكون اللذّة أتمّ؛ لأنّها أتت بعد حرمان التّبيين، واللذّة بعد الألم أكمل من المستأنفة.

والاستفهام في قوله : "من لي" للتّعظيم، أو للاستبعاد، والبحث في "لي" الواقع بعد "مَن" يقرب من الّذي قبله. وتنكير "جِماح" الأوّل للتّعظيم. وفي قوله : "باللّجم" احتراس من الجِماح الّذي يكون من النّشاط وسرعة الجَري، فإنّه يردّه أدنى تخييل، بخلاف الّذي يكون للاعتزام في رأس الفرس كما تقدّم، فدلّ بقوله : "باللّجُم" على أنّ جِماح نفسه من المعيب. ويحتمل أن يكون "باللّجُم" من الإطناب المسمّى بالإيغال، ونكتته تحقيق تشبيه جِماح النّفس بجِماح الخيل، كقول امرئ القيس[1] :

كأنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا ... وأَرْحُلنَا الجِزْعُ الّذي لم يُثَقَّب

فإنّ الجزع غير المثقّب أزيد شبهًا بالعيون من غيره.

وفي البيتين التفاتٌ؛ لأنّه قبلُ كان يُخبر عن النّفس بالاسم الظّاهر وهو غائب، ثمّ أخبر هنا عن المتكلّم، ويحتمل أن لا يكون التفاتًا.

---

(1) انظر ديوانه : ص 78. والجزع : خرز أسود يخالطه البياض.

اَلْبَيَانُ

لمّا كان منصوب "أوقّره" يعود على الضّيف، احتمل ما احتمل.

وقوله : "كتمتُ سرًّا" تشبيه بليغ؛ لأنّه شبّه إخفاء الشَّعر الأبيض بالصّبغ بإخفاء السرّ، ولم يذكر أداة تشبيه، ولولا اشتمال البيت على ذكر طَرَفَي التّشبيه لكان من الاستعارة.

وأمّا قوله : "مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاح مِنْ غَوَايَتِهَا"؛ فلو اقتصر على هذا الشّطر، لكان استعارة بالكناية، وهي ترشيحية؛ لذكر ما يلائم المستعار منه؛ وهو الجِماح، لكن لمّا ذكر الشّطر الثّاني، تبيّن أنّه تشبيه، ووجهه بيّن، فالغرض منه يعود إلى المشبّه؛ لأنّه لمّا طلب أو تمنّى مَن يردّ له نفسه من جِماحها، كأنّ سامعه استبعد ذلك؛ لِمَا علم من حال النّفس، فذكر ما يدلّ على قرب مطلوبه إنْ صحّ قياسه. ومن هذا قول أبي الطيّب[1] :

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ　　　فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

والتّشبيه في هذا البيت مقدّر؛ أيْ أنتَ في الفضائل كأنّك خارج من نوع الإنسان، وإنْ كنتَ منه، فإن استبعد ذلك مستبعدٌ، فليعتبر بالمسك، فإنّه من الدّم، ولِمَا فيه من الخصائص، كأنّه ليس منه.

---

(1) انظر البيت في يتيمة الدهر. الثعالبي : 62/1.

قيل : «ومنه : ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾[1]»[2]. وفيه نظرٌ.

وإذا أخذ تشبيهه دليلاً، فالتّشبيه المستدلّ عليه ما تضمّنه الشّطر الأوّل، ويتعيّن حينئذٍ كونه استعارة، والظّاهر أنّه تشبيهٌ واحدٌ لا تشبيهان.

وقوله : "بِرَدِّ جِمَاح" مِن مجاز الحذف على الأظهر؛ أيْ ذات جِماح.

---

(1) سورة الأعراف : من الآية 171.

(2) لعله يقصد بالقائل الخطيب القزويني صاحب تلخيص المفتاح، فإنه قال عن قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾. فإنه بيّن ما لم تجر به العادة بما جرت به العادة. انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح. الصعيدي : 415/3.

قوله : "لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ.." إلى آخره من المذهب الكلامي؛ أيْ لكنّي لم أكتم، فلم أعلم أنّي لا أوقّره. وفي قوله : "سرّا بدَا" مطابقة. وقوله : "كتمتُ" و "الكتَم" من التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق. وجمعه بين ضمير "الشّيب" و "الكَتَم" مِن مراعاة النّظير، ومنه أيضاً جمعه بين "كتمتُ" و "السِرّ".

وجمعه بين "جِماح" و "غِواية"، وكذا بينه وبين "الخَيل" و "اللُّجم" مِن مراعاة النّظير. وإن كان قوله : "يُردّ" بـ "ياء" الغيبة؛ حتّى يكون "جِماح" مصدرًا، فهو من التّكرير، وفائدة اختلاف المتعلّق، وإن كان بـ "تاء" التّأنيث حتّى يكون جِماح جمع جُموح؛ أيْ الخيل الجَموحَة؛ من إضافة الصّفة إلى الموصوف، ففيه من الأوّل جناس تام. وفي "كَمَا يُرَدُّ جِمَاح" على ما تقدّم في البيان المذهب الكلامي، ولا يبعد أن يكون "باللُّجُم" من الإرصاد.

اَلْإِعْرَابُ

كنتُ : كان واسمها، وأصله كَوَنَ؛ كضرب، وكلّ ماض يسند إلى "التّاء" أو النّون أو "نا"، فإنّه يسكّن آخره، ويُحذف ما قبله من حرف العلّة، فإن كان على "فعُل" - بضمّ العين - كطال، أو "فعِل" - بكسرها - كخاف، فإنّ أصل الأوّل "طول" بدليل طويل، وأصل الثّاني "خوف" بدليل يخاف، نقلت حركة ذلك الحرف من ضمّة أو كسرة إلى الفاء، وحذف ذلك الحرف لالتقائه ساكنًا مع آخر الفعل المسكّن للإسناد، وإن كان على "فعَل" ككان وباع أصله بيع، فهاهنا خلاف، فمنهم من يقول تحرّك حرف العلّة وانفتح ما قبله، فقُلبت الفاء ثمّ حُذفت لالتقائها ساكنة مع آخر الفعل، ثمّ حُرّكت الفاء في الواوي بالضمّ وفي اليائي بالكسر، لتدلّ على ما حُذف. وقيل : بل يحوّل الواوي لفعل واليائي لفعل قبل الإسناد، ثمّ تنقل الضمّة أو الكسرة إلى فاء الكلمة بعد حذف حركتها، وتبقى الواو والياء ساكنة، فتُحذف لالتقاء السّاكنين، وقيل: بل تنقلبان بعد الإعلال ألفًا، فيتعذّر وجود إحدى الحركتين وبعدها ألف، فتعود الضمّة فتحة، فإذا زالت الألف رجعت الضمّة، والوجه الّذي قبل هذا أولى؛ لأنّه رأى الأمر يفضي إلى آخر، فيصير آخره أوّلا. وكان حقّ هذا التّصريف أنْ يُقرّر عند قوله : "إن قلتَ اكفُفا"[1].

وجملة "أعلم.." : في موضع نصب خبر "كنت".

وجملة "ما أوقّره.." : في موضع رفع خبر "أنّ"، و "ما" نافية.

---

(1) يقصد لفظ "قال".

و "أنّ" ومعمولاها : في موضع مفعول "أعلم" أو مفعوليه.

وكتمتُ : جواب "لو".

وبالكتَم : متعلّق به.

و "بدا لي منه" : في موضع نصب صفة لـ "سرّا"، و "لي" و "منه" متعلّقان بـ "بدا"، و "من" للتّبعيض أو للابتداء.

ومَنْ : مبتدأ. ولي : خبره.

وبردّ : متعلّق بما يتعلّق به الخبر؛ من كون مطلق أو خاص يدلّ عليه السّياق، وهو الظّاهر؛ أيْ: يتكفّل لي، ونحوه. و "ردّ" مصدر مضاف للمفعول، وفاعله ضمير عائد على "مَن"، والتّقدير : ذات جماح، أو لا يحتاج إلى حذف.

و "مِن غَوايتها" : صفة لـ "جِماح"، و "مِن" للابتداء، ويجوز تعلّقها بـ "جِماح" على أنّها سببيّة، أو بـ "ردّ"، وهي لبيان جنس الجِماح؛ أيْ: الّذي هو غَوايتها، ولا يصحّ كونها بمعنى "عن"؛ لأنّ المطلوب حينئذٍ ردّ الجماح عن الغَواية لا للغَواية.

والكاف في "كما" : نعت لمصدر محذوف، و "ما" مصدرية في الأظهر؛ أيْ: ردّ كردّ، ويحتمل كونها موصولاً اسميًا، والحال أنّها نعت لمصدر؛ أيْ: كالردّ الّذي يردّ جماح الخيل، وحُذف العائد.

و "باللّجم" : متعلّق بـ "ردّ".

الْإِشَارَاتُ

[توطين النّفس على عبادة الله]

قوله : "لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ .." البيت؛ فيه إشارة إلى ما ذكرنا من أنّ المؤمن إنّما يكون حاله أبدًا توطين النّفس على عبادة ربّه، والإقلاع عن المعاصي، ولو كان متورّطًا فيها، وأنّه لا يزحزحه عن العمل بمقتضى هذه النية إلاّ ما يقهره ويغلبه، حتّى يخرج عن طوقه؛ كجِماح النّفس الّذي لا يقدر أن يغالبه ولا يردّه، كما لا يقدر على جماح الفرس إلاّ باللّجام المحكم بعد إعمال الجهد.

ويُستفاد من كلامه أنّه لا يهمل نفسه والعصيان رضىً به، بل لا يكون إلاّ كارهًا له ساعيًا في تركه، كما يكره الفارس جماح فرسه، وهو في حال جَريه به على سبيل الجماح غير راضٍ بذلك الجَري، ومحاول في إمساك فرسه عنه، فإنّه قد يؤدّي إلى هلاكه، كما يؤدّي العصيان إلى الهلاك، فالنّفس تُجاهَد حتّى تكفّ عن جريها، كما يُجاهَد الجَموح، وأصل مجاهدتها وملاكها فطْمها عن المألوفات، وحمْلها على خلاف هواها في عموم الأوقات، ولها صفتان : انهماك في الشّهوات، وامتناع عن الطّاعات، فإذا جمحت عند ركوب الهوى، يجب كبحها بلجام التّقوى، فإذا حزنت عند القيام بالموافقات، يجب سوقها على خلاف الهوى، وإذا ثارت عند غضبها، فمن الواجب مراعاة حالها، فما من مُنازلة أحسن عاقبة من غضب يُكسر سلطانه بحسن الخلق، وتُخمد نيرانه برفق، وإذا استحلت شراب الرّعونة فضاقت، إلاّ عن إظهار مناقبها والتزيّن لمن ينظر إليها ويلاحظها، فمن الواجب كسر ذلك عليها بما

يذكّرها من حقارة قدرها وخساسة أصلها وقذارة فعلها. وجَهد العوام في توفية الأعمال، وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال، فإنّ مقاساة الجوع والسّهر سهل يسير، ومعالجة الأخلاق عن سفسافها صعب شديد، ومن غوامض آفاتها ركونها إلى استحلاء المدح، فإنّ من تحسى منه جرعة حمل السّموات والأرض مثلاً على أشفاره[1].

قال عروة بن الزّبير[2] : رأيت عمر بن الخطّاب[3] - رضي الله عنه - على عاتقه قربة ماء، فقلتُ : يا أمير المؤمنين، لا ينبغي لك هذا. فقال: «لَمَّا أَتَانِي الوُفُودُ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، دَخَلَتْ نَفْسِي نَخْوَةٌ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكْسِرَهَا». ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار، فأفرغها في إنائها[4].

---

(1) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 218/1.

(2) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (22 - 93هـ= 643 - 712م). أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالما بالدين، صالحا كريما، لم يدخل في شئ من الفتن. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين. وعاد إلى المدينة فتوفي فيها. وهو أخو عبد الله بن الزبير لابيه وأمه. انظر الأعلام. الزركلي : 226/4.

(3) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص (40 ق هـ- 23هـ= 584 - 644م). ثاني الخلفاء الراشدين، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع. وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر. وفي أيامه تم فتح الشام والعراق، وافتتحت القدس والمدائن ومصر والجزيرة. قتله أبو لؤلؤة. انظر الأعلام. الزركلي : 45/5.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 279/1.

ويحتمل على نمط ما تقدّم أنْ يقول القائم بالحقّ إذا عنّف : لو كنتُ أعلم أنّي ما أوقّر الحقّ - أو الله سبحانه وتعالى - كتمتُ سرّا بدَا لي منه؛ أيْ من عباده، بالكتَم؛ أيْ بالكتمان، وحرّك تاء الكتَم للضّرورة.

وقوله : "مَن لي بردّ"؛ تَمنٍ منه أن يكون له جماعة تعضده على القيام بالحقّ حتّى يردّوا الأمّة عن جماح غَوايتها بالسّيف الّذي هو للعصاة، كاللّجم للخيل الجَموحة، وهذا كلّه حرصٌ على هداية الأمّة؛ اقتداءً بسيّد المرسلين في ذلك، وأداءً لما يجب من النّصح لعامّة المسلمين وخاصّتهم[1].

❁ ❁ ❁

(1) يشير إلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قَالَ الصحابة : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ :«لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ». رواه مسلم عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ مرفوعا في الإيمان. باب بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ. ورواه غيره.

فَـلاَ تَـرُمْ بِالْمَعَاصِـي كَسْـرَ شَـهْوَتَهَا إِنَّ الطَّعَـامَ يُقَـوِّي شَـهْوَةَ الـنَّهِمِ

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْه شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنفَطِمِ

شَرْحُ الْغَرِيْبِ

فلا تَرُم : أيْ لا تطلبْ. رُمْتُ الشَّيء أرومُهُ رَوْماً؛ إذا طلبتُه. ابن الأعرابي : «رَوَّمْتُ فلاناً، وروَّمْتُ بفلان؛ إذا جعلتَه يطلبُ الشَّيءَ». والمَرامُ : المطلبُ[1].

والمعاصي : جمع مَعصية من العِصيان، وهو ضدّ الطّاعة، وهو : فعل محرّم، أو ترك واجب رفضًا.

وقد عَصَاه – بالفتح – يَعْصِيه عَصْياً ومَعْصِيَةً؛ فهو عاصٍ وعَصِيٌّ. وعَاصَاهُ مثل عَصاهُ، واسْتَعْصى عليه. واعْتَصَتَ النواةُ؛ اشتدَّت. وأعْصى الكَرْمُ : أخْرج عيدانَه. والعاصي: عِرْقٌ لا يرقأ. وعُصَيَّةُ : بطنٌ من سُلَيم[2].

وكَسْر : مصدر كسرت الرّجل عمّا يريد كسرًا؛ صرفته عنه، وكَسَرْتُ الشَّيء؛ فانْكَسَرَ، وتَكَسَّرَ، وكَسَّرْتُهُ، شُدِّد للكثرة[3]. وناقةٌ كَسيرٌ،

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1939/5. مادة ريم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2429/6. مادة عصا.

(3) وأيضاً للمبالغة.

كقولهم : كفٌّ خَضِيبٌ. وكَسَرَ الطائرُ؛ ضمَّ جناحيه حين ينقضّ. والكاسِرُ: العُقاب. وعودٌ صلب المَكْسِرِ، بكسر السّين، إذا عَرفْت جَوْدَتَهُ بكسرِهِ. وفلان طيّب المَكْسِرِ؛ محمود عند الخِبرة. وأرضٌ ذاتُ كُسورٍ؛ أيْ ذات صعودٍ وهبوطٍ. ورجلٌ ذو كَسَراتٍ وهَزَراتٍ؛ إذا كان يُغْبَنُ في كلِّ شيء. وكُسارُ الحطبِ : دُقاقُهُ. وشيءٌ كَسيرٌ؛ أيْ مكسورٌ، والجمع كَسْرى. كمريض ومَرْضَى[1].

والطّعام : ما يُؤكل، وربَّما خُصَّ بالبُرِّ. والطَعْمُ – بالفتح –؛ ما يؤدّيه الذَوق، وما يُشْتَهى أيضاً منه. يُقال : ليس له طَعْمٌ. والطُعْمُ بالضمّ: الطَعامُ. وطَعِمَ يَطْعَمُ طُعْماً؛ أكلَ أو ذاق. كغَنِم يَغْنَمَ غُنْمًا، فهو طَاعِم كغَانِم، وقيل: طَعْمُهُ؛ أكْلُهُ. وفروع لغة الطّعام كثيرة[2].

وقوله : **يقوّي** : من القوّة خلاف الضّعف.

والشّهوة : قال الجوهري : «معروفة»[3].

قلتُ : وهي : ميل النّفس إلى شيء. قال بعضهم : «هي من قبيل الأمنيات». وطعامٌ شَهِيٌّ؛ أيْ مُشتهىً. ورجلٌ شَهْوانُ للشّيء. وشَهِيتُ الشّيءَ – بالكسر – شَهْوَةً؛ إذا اشْتَهَيْتَهُ. وتَشَهَّيْتُ على فلانٍ كذا. وهذا يُشَهِّي الطعامَ؛ أيْ يحمل على اشْتِهائِهِ[4].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 805/2. مادة كسر.
(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1974/5. مادة طعم.
(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2397/6. مادة شها.
(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2397/6. مادة شها.

والنّهِم : اسم فاعل من نهِم – بالكسر – ينهم نهَما بالتّحريك، وهو إفراط الشّهوة في الطّعام.

والنَهْمَةُ أيضاً؛ بلوغ الهمَّة في الشّيء. وقد نُهِمَ بكذا فهو مَنْهُومٌ؛ أيْ مولعٌ به. وفي الحديث : «**مَنْهُومَانِ لا يَشبَعَانِ : طَالبُ عِلْمٍ وَطَالبُ مَالٍ**»[1].[2]

والنّفس : لغةً الرّوح، وهو أيضاً الدّم، وهي أيضاً الجسد كلّه، ويُطلق على معانٍ أُخر لا يليق بهذا المحلّ.

---

(1) الأثر ورد بلفظ "دنيا" بدل "مال"، وروي بهذا اللفظ - الّذي نقله ابن مرزوق عن الصحاح للجوهري - موقوفا على ابن عباس رضي الله عنه، رواه عنه الدارمي في سننه في المقدمة. باب في فضل العلم والعالم. والأثر رواه غيره وهو ضعيف. لكن رُوي بمعناه مرفوعا من طريق أنس بلفظ : «**مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ**». رواه الحاكم في المستدرك : 169/1. رقم الأثر 312. وقال عنه: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَلَمْ أَجِدُ لَهُ عِلَّةً». ووافقه الذهبي.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2047/5. مادة نهم.

[حقيقة الرّوح]

وأمّا حقيقتها، وهل هي مرادفة للرّوح أو مباينة له، ففيه للعلماء اختلاف كثير، ذكر بعضهم أنّه ينتهي إلى ثلاثمائة قول[1] : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[2].

والطّفل : المولود. قال بعضهم : «فإذا فطم سمّي فطيما، والجارية طفلة».

وولدُ كلِّ وحشيَّةٍ أيضاً طِفْلٌ، والجمع أَطْفالٌ. وقد يكون الطِفْلُ واحداً وجمعاً، ومنه : ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ ﴾[3] [4].

قال بعضهم : «ما دام في البطن فجنين، فإذا وُلد فصبيّ ما دام رضيعًا، فإن فُطم فغلام إلى سبع، فيَفَع ويافع إلى عشر، فحَزَوَّرٌ إلى خمس عشرة، فغَمْر إلى خمس وعشرين، فعَنْطَنْط إلى ثلاثين، فصَمْل إلى أربعين، فكهْل إلى خمسين، فشيْخ إلى ثمانين، فهمّ فانٍ كبير». وقيل في ترتيبه غير هذا ممّا يطول ذكره[5].

إن تُهْمِلْه : تتركه، وأهملتُ الشّيء : خلّيتُ بينه وبينَ نفسه. والهَمَل بالتّحريك؛ الإبل بلا راعٍ؛ كالنَفَش، إلاّ أنّه لا يكون إلاّ ليلاً،

---

(1) انظر تفسير الجواهر الحسان. الثعالبي (تلميذ ابن مرزوق) : 495/3.

(2) سورة الإسراء : الآية 85.

(3) سورة النور : من الآية 31.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 1751/5. مادة طفل.

(5) انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 15/2.

والهَمَلُ يكون ليلاً ونهاراً. وفي المثل : "اختلط المَرْعِيُّ بالهَمَلِ". والهَمَلَ أيضاً؛ الماء لا مانعَ له. والمُهْمَلُ من الكلام؛ خلاف المستعمَل[1].

وشبَّ الغُلام : يَشِبُّ - بالكسر - شَباباً وشبيبة؛ إذا كبر.

وقال ثابت[2] في كتاب "**خلق الإنسان**" : «إذا اسْوَدَّ شَعَرُ وجهِ الغُلاَمِ، وأخَذَ بعضُه بَعْضاً، فَهُوَ مُحَمِّمٌ، ومنهُ حَمَّمَ الفَرخُ، إذا لَوَّنَ رِيشُه إِلَى الخُضْرِةِ والسَّوادِ، ويُقال عند ذلك قد بَقَلَ وجهُهُ، وقد التَفَّ وجهُه، ثمّ هو شاب وفتىً، فإذا اجتمع وتمّ، فهو كَهْل»[3].

وقال الفقهاء : الشّاب لمن بين البلوغ وكمال الأربعين[4].

وقال الجوهري : «الشَّبِيبَةُ؛ خِلافُ الشَّيْبِ، وأَشَبَّ الرّجل بَنِينَ؛ إذا شَبَّ أولاده. وأَعْيَيْتَني مِنْ شُبَّ إلى دُبَّ، كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "**عَنْ قِيلَ وَقَالَ**"[5]. ومِنْ شُبٍّ إِلَى دُبٍّ؛ بدخول "مِن" عليه بمنزلة الاسم، وإن كان في الأصل فعلاً»[6].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1854/5. مادة همل.

(2) هو ثابت بن سعيد، وقيل محمد، وقيل عبد العزيز، وهو الصحيح، من أصحاب أبي عبيد القاسم بن سلام، كان حيا قبل 244هـ.

(3) انظر المخصص. ابن سيده : 62/60/1.

(4) انظر حاشية الصاوي على الشرح الصعير. الصاوي : 124/4.

(5) هو جزء من حديث رواه البخاري عن الْمُغِيرَةَ بْنُ شُعْبَةَ مرفوعا في الرقاق. بَاب مَا يُكْرَهُ مِنْ قِيلَ وَقَالَ. ورواه غيره.

(6) انظر الصحاح. الجوهري : 151/1. مادة شبب.

والرَّضاع : بالفتح كالسَّماع، مصدر رَضَعَ الصَبيّ يَرْضَع، وأهل نجدٍ يقولون : رَضَعَ يَرْضِعُ رَضْعاً؛ كضَرَب؛ حكاه الأصمعي عن عيسى بن عمر. وأَرْضَعَتْهُ أمُّهُ، وامرأةٌ مُرْضِعٌ؛ أيْ لها ولد تُرْضِعُهُ، فإن وصفتها بإرضاع الولد، قلتَ مُرْضِعَةٌ. والرَضوعَةُ؛ الشّاةُ تُرْضِعُ. وقِيل لكلّ مُرْضِعَة. والرّاضِعَتانِ؛ ثَنِيَّتا الصبيّ. ولئيمٌ راضعٌ؛ أصله رجلٌ كان يَرْضَعُ ماشيته، ولا يحلُبها لئلاًّ يُسْمَعَ، فيُطْلَب منه. ورَضُعَ - بالضمّ -؛ كالشّيئ الّذي يُطْبَعُ عليه. وهذا أخي مِن الرَضاعةِ - بفتح الرّاء - رَضيعِي؛ كأَكِيلِي ورَسِيلِي. وراضَعَ ابنَه؛ دفعَه إلى الظِئْر. وارْتَضَعَتِ العنزُ : شربتْ لبنَ نَفْسِها[1].

وتَفْطِمه : أيْ تَفْصِلُه عن الرَّضاع.

ويَنْفَطِم : معناه ينفصل، من قولك : فَطَمَتِ الأمُّ ولدها تَفْطِمه فِطَامًا فهو فَطِيم؛ أيْ فصلته عن رَضَاعِها، وجمع الفَطِيم فُطُمٌ؛ كسَرير وسُرُر، وفَطَمْتُ الرجلَ عن عادته. ابن السكيت : «ناقة فَاطِم : إذا بلغ حوارها سنة، ثمّ فُطِم». وفَطَمْتُ الحبلَ : قطعته[2].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1220/3. مادة رضع.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2002/5. مادة فطم.

التَّفْسِيْرُ

[ترويض النفس]

لمّا أمر بردّ النّفس عن جماحها بأقصى ما يكون من العنف؛ كردّ الخيل الجَموحة باللُّجم القويّة، وكان من الجائز أنْ يُقال: بل الأولى السياسة في ردّها إلى الطّاعة، وأنْ لا يُقلعها دفعةً عمّا هي فيه؛ لئلاّ تنفر، بل تُقلع برفق، وتُترك تلتذّ ببعض ما أَلِفت، حتّى تشبع ممّا توجّهت له، فتنكسر شهوتها، قال : فلا تَرُم بالمعاصي؛ أيْ لا تطلب بتماديك على المعاصي كسر شهوة النّفس؛ أيْ أنْ تُكسَر وتفتِر عن شهواتها؛ لأنّها تملّ المعاصي، فإنّ ذلك غلط، بل تماديها على العصيان موجب لتآنسها به وصعوبة إقلاعها؛ لإلفها بذلك، بل ينبغي أن تقلع جملةً واحدةً؛ كما يردُّ اللّجامُ الجَموحَ، واستدلّ على أنّ التّمادي يوجب تمكينها في المعاصي بقوله : "إنّ الطّعام يُقوّي شهوة النّهم"؛ أيْ تمكين النّهِم من الطّعام يزيد في قوّة شهوته إيّاه، بخلاف ما إذا رُفع مِن بين يديه، فإنّه لا يجد ما يشتغل فيه، فييأس منه، فكذلك النّفس إذا حيل بينها وبين المعاصي تيأس منها، وتعود إلى الطّاعة، وأمّا إنْ تُركت وإيّاها، فهي لمحبّتها فيها لا تريد مفارقتها، كما أنّ محبّة النّهم في الأكل توجب له الأكل ما دام واجدًا لِما يأكل.

لا يُقال : دليله غير ظاهرٍ، فإنّ النّهم إنّما تقوى شهوته إلى الطّعام إذا لم يشبع منه، وأمّا إذا شبع، فقد أخذ حاجته منه.

لأنّا نقول : مِن كلام العرب "تَطَعَّمْ تَطْعَمْ"[1]؛ أيْ ذق تأكل، والمعدة أبدًا تنتفخ لِما يُلقى فيها مِن الطّعام إلاّ لمانع، وقوّتها الجاذبة لا تزال وإنْ امتلأت، لا سِيَّما معدة النّهم، وهذا هو الجواب لِما ذكر بعضهم، فتأمّله.

ثمّ مثّل النّفس أيضاً بالطّفل، فإنّه إن تُرك للرّضاع وأُهمل لم يفتقد، أو أُمهل ولم يُعاجل بالفِطام على اختلاف الرّوايتين في البيت : "تُهمله" و "تُمهله"، استمرّ على حبّه إلى أن يصير شابًا، لا يُثْنيه عنه - لمحبّته فيه - حشمة ولا كبر سنّ، وإن فطمتَه عن الرّضاع، أيِس وانْفَطَم، ولم يصر طالبًا له بوجه، وإن كان لمحبّته فيه ولذاذته عنده أصعب الأشياء عليه قَطْعه عنه، ولذا تجده يبكي، فلا يسكت حتّى يرضع، لكنّه إنْ فُطم عنه، يئِس منه بعد اليومين ونحوهما، فكذا مَن أَتْبَعَ النّفس هواها، وجاراها في مشتهاها، لا تزال على حالها، ولا تملّها، ولا يحتشم ممّا يأتيه من المعاصي؛ لمؤالفتها إيّاه، ولو بلغ صاحبها من السنّ في الكبر ما لا مزيد عليه، فإن ردّت عمّا هي عليه بالعنف، وصبرت على ما تلقى من المشقّة في ذلك، ووطّن صاحبها على عدم العودة، أيِست وتمادت على الطّاعة واستحلتها، كما كانت تستحلي المعصية أو أشدّ إن وفّقها الله تعالى.

قال بعضهم : «قوله : "فَلاَ تَرُم.." إلى ".. شَهْوَتِهَا" لم يتضمّن أكثر من أنّ شهوتها لا تنكسر، لا أنّها تتضاعف. وقوله : "إنّ الطّعام.." يدلّ

---

(1) انظر المخصص. ابن سيده : 413/1.

على أنّها لا تنكسر، وتتضاعف، ولا يدلّ على أنّها لو لم تتماد لكفّت، ويدلّ على هذا الدّليل الثّاني؛ وهو قوله : "والنّفس.." إلى آخره».

قلتُ : أمّا قوله : "فلا ترُم"؛ فنهي عن هذا الرّوم خاصّة، وأمّا أنّه لأجل أنّها لا تنكسر أو لغير ذلك، فلا يدلّ عليه. وقوله : "إنّ الطّعام.." إلى آخره يدلّ بالمطابقة على أنّها تتضاعف بالتّمادي، وبالالتزام على أنّها لا تنكسر. وقوله : "والنّفس.." إلى آخره يدلّ على الأمرين بالمطابقة.

[أقوال في معنى البيت الأول]

وممّا قيل في معنى البيت الأوّل :

خَفِ اللهَ وَاحْذَرْ مِنْ عَوَاقِبِ شَهْوَةٍ   مَسَـرَّتُهَا تَفْنَـى وَيَبْقَـى لَـكَ الـوِزْرُ

وَلاَ تَحْتَقِـرْ ذَنْبًـا صَـغِيرًا تُضِـيفُهُ   إِلَـى مِثْلِـهِ فَالسَّـيْلُ أَوَّلُـهُ قَطْـرُ[1]

وقال أبو الفرج الجوزي[2] :

إِذَا عَنَّـتْ لهَـا شَـهْوَةُ طُفَيْلِـي   الهَرَائِسِ فَاذْكُرْ قَتْلَهُ وَضَّاحَ اليَمَنِ[3]

وفي معنى ما تضمّنه أيضاً من أنّ التّسويف قد ينقطع معه الأجل دون الأمل قوله[4] :

مَا كلُّ ما يَتَمَنّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ   تجرِي الرّياحُ بمَا لا تَشتَهي السّفُنُ

---

(1) لم أقف على قائل هذين البيتين، ووقفت عليهما في كتاب الأنس في شرح عيوب النفس. محمد بن علي الخروبي : ص 86.

(2) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج (508 - 597هـ= 1114 - 1201م). علامة عصره في التاريخ والحديث. مولده ووفاته ببغداد، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها. له نحو ثلاث مئة مصنف. انظر الأعلام. الزركلي: 316/3. ولم أقف على البيت في المصادر.

(3) وضاح اليمن هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن عبد كلال، من آل خولان، من حمير (.. - نحو 90هـ = .. - نحو 708م)، شاعر، رقيق الغزل، عجيب النسيب. كان جميل الطلعة. يُروى أن سبب قتله أن أحد العبيد أبلغ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أن وضاحا في غرفة زوجته أم البنين (لعلاقة بينهما)، وكانت قد وضعته في صندوق لتخفيه، فأخذ الخليفة الصندوق، ودفنه ووضاح داخله. انظر الأعلام. الزركلي : 316/3.
ولم أقف على البيت في المصادر. والهرائس جمع هريسة.

(4) هو المتنبي. وانظر البيت في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 107/3.

وقال ابن المعتزّ[1] :

نَسِيرُ إِلَى الآجَالِ في كلِّ سَاعَةٍ وَأَيَّامُنَا تُطْوَى وهُنَّ رَوَاحِلُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ المَوْتِ حَقاً كَأَنَّهُ إِذَا مَا تَخَطَّتهُ الأمَانِيُّ بَاطِلُ

وَمَا كلُّ مَا يَرْجُو الفَتَى هُوَ عَاجِلُ وَمَا كُلُّ مَا يَخْشَى الفَتَى هُوَ آجِلُ

[أقوال في معنى البيت الثاني]

وفي معنى البيت الثّاني قول أبي ذؤيب الهذلي[2] :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا مَا رَغَّبْتَهَا وإذا تُرَدُّ إلى قَلِيلٍ تَقنَعُ

وقول الآخر :

هِيَ النَفْسُ ما حَمَّلْتَها تتحمَّلُ ....[3]

---

(1) انظر الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 449/9.

(2) انظر البيت في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 194/4.

(3) هذا شطر بيت ينسب لعدة من الشّعراء. مثل علي بن الجهم، وعلي بن محمد البستي، وأبي سعيد بن خَلَف الهَمذاني. ويروى :

هِيَ النَفْسُ ما حَمَّلْتَها تتحمَّلُ وَلِلدَّهرِ أيامٌ تَجُورُ وَتَعْدِلُ

ويروى أيضاً :

ومَا أَدَّعِي أَنِّي جَلِيدٌ وَإِنَّمَا هيَ النَفْسُ ما حَمَّلْتَها تتحمَّلُ

انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 325/4. الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 341/10.

قوله : "فلا ترُم"، لا أعلم لإتيانه هنا بالفاء وجهًا، والصّواب الواو، إلاّ أنْ يقال : أتى بها للتّنبيه على ترك النّفس على المعصية، وهو من الخطاب العام؛ إذ لا يُقصد به معيّنًا. و «أل» في "المعاصي" للعموم؛ أيْ الصّغائر والكبائر، فإنّه يجب الإقلاع عنها كلّها، والأظهر أنّها في "الطّعام" كذلك؛ ليتمّ التّنظير، وأمّا الّتي في "النّهِم" فلتعريف الحقيقة، وإتيانه بالنّهي دون أن يقول: "أقلع عن المعاصي"؛ ليفيد من أوّل الأمر أنّها مطلوبة الانتفاء، بحيث لا يصحّ أن يتلبّس بها.

فإنْ قلتَ : إنّما نهى عنها نهيًا خاصًا، فقال : لا تَرُم بها كذا. والنّهي عن الأخصّ لا يستلزم النّهي عن الأعمّ، واللاّئق بما ذكرتُ أنْ يقول : "لا تعص".

قلتُ : المعصية غير محبوبة البتّة لكلّ أحد، لا سِيَّما المؤمن، إنّما يأتي بها فاعلها لدفع الشّهوة الغالبة، فإذا تبيّن أنّ فعلها لتلك العلّة يزيدها تمكينًا، كان ذلك موجبًا لتجنّبها بالكليّة؛ لأنّها غير محبوبة، وإنّما يفعل منها ما يدفع الحاجة.

والظّاهر أنّ في البيت الأوّل شبه حذف التّقابل، أو هو هو، إذْ المعنى : لا تَرُم بها كسر شهوة النّفس، فإنّها تتقوّى بمفارقتها، كما لا يَرُوم النّهِم بأكله من طعامٍ كسر شهوته إيّاه، فإنّ الطّعام يقوّي شهوته.

[حقيقة حذف التّقابل]

وحذف التّقابل هو : «أَنْ يَثْبُتَ فِي كُلٍّ مِن لَفْظَيْنِ نَظِيرَ مَا حُذِفَ مِنَ الآخَرَ»[1].

نحو : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾[2]؛ تقديره عند سيبويه : «مثلك يا محمّد والّذين كفروا كمثل النّاعق والمنعوق به الّذي لا يسمع»[3]. فحذف من الأوّل "يا محمّد"، وهو داعٍ، وأثبت نظيره في الثّاني؛ وهو "النّاعق"، وحذف من الثّاني "المنعوق به"؛ وهو المدعو، وأثبت نظيره في الأوّل؛ وهو "الّذين كفروا". ومنه[4] :

وإنّي لتَعْروني لِذكراكِ فَتْرةٌ[5] ... كما انْتَفَضَ العُصفورُ بَلَّله القَطْرُ

والتّقدير : فترة فانتفضُ كما تعرو العصفورَ فترةُ القطر، فينتفض.

وفي البيت حذف من الأوّل "فإنّها تتقوّى"، وأثبت نظيره في الثّاني؛ وهو "إنّ الطّعام يقوّي"، وحذف من الثّاني "كما لا يَرُوم"، وأثبت نظيره في الأوّل، وهو "فلا تَرُم". وإذا عرفتَ أنّ هذا معنى البيت، علمتَ أن قوله : "إنّ الطّعام" من الاستئناف البياني؛ الّذي هو : «سؤال عن

---

(1) ويسمى أيضاً الاحتباك. انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 257/3.

(2) سورة البقرة : من الآية 171.

(3) انظر الكتاب. سيبويه : 212/1.

(4) البيت لأبي صخرٍ الهُذَليّ. انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 259/3.

(5) يروى "هزة" بدل فترة.

سببِ الحكم الخاص»، كأنّه قيل : لِم لا يَرُوم النَّهِم كسر شهوته؟ فقال : إنّ الطّعام.. والإسناد في قوله : "يقوّي" مجازيٌ؛ لأنّه من الإسناد إلى السّبب.

و «أل» في "النّفس" وفي "الطّفل" للعموم، وفي "الرَّضاع" للحقيقة.
وفي البيت الثّاني الإطناب؛ لأنّه أجمل حين شبّه النّفس بالطّفل، ثمّ فسّر بقوله : "إنْ تُهمله.." إلى آخره.

اَلْبَيَانُ

قصد النّاظم في البيت الأوّل كما تقدّم تشبيه تقوّي النّفس بالمعاصي بتقوّي شهوة النّهِم بالطّعام، فالطّرفان؛ أعني المشبّه والمشبّه به عقليان، والجامع - وهو التّمادي فيهما - حسيّ، وهو واحد، ولم يأت بالتّشبيه صريحًا، بل أتى بالمشبّه به على صورة الدّليل، ونظيره قول المعرّي[1] :

فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي العَيْشَ فَابْغِ تَوَسُّطاً ... فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المُتَطَاوِلُ

تَوَقَّى البُدُورَ النَّقْصَ وَهِيَ أَهِلَّةً ... وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ

ومنه[2] :

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

(1) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخي أبو العلاء المعري (363 - 449هـ= 973 - 1057م). شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرة النعمان، أصيب بالجدري صغيرًا فعمي في السنة الرابعة من عمره. هو من بيت علم كبير في بلده. ولما مات وقف على قبره 84 شاعرا يرثونه. انظر الأعلام. الزركلي : 157/1.

وانظر الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 394/7.

(2) البيت للمتنبي. وسبق توثيقه.

وقول ابن بابك[1] في أبي علي[2] حين استوزره فخر الدولة[3] بعد وفاة ابن عباد[4] :

وَأعرْتَ شَطْرَ المُلْكَ ثَوب كَمَالِهِ   وَالبَدرُ في شَطْرِ المَسَافَةِ يَكْمُلُ

وقول أبي تمّام بعد أبيات[5] :

إِنَّ الهِــلالَ إِذا رَأَيْــتَ نُمُــوَّه   أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بدْراً كامِلاَ

---

(1) هو عبد الصمد بن منصور بن الحسن بن بابك، أبو القاسم (.. - 410هـ= .. - 1020م). شاعر مجيد مكثر. من أهل بغداد. طاف البلاد، ولقي الرؤساء، ومدحهم، وأجزلوا جائزته. توفي ببغداد. انظر الأعلام. الزركلي : 11/4.

(2) هو أبو علي الحسن بن أحمد.

(3) هو محمد بن محمد بن جهير الثعلبي، فخر الدولة، مؤيد الدين، أبو نصر (398 - 483هـ= 1007 - 1090م). وزير ممن اشتهروا بالحزم وأصالة الرأي. أصله من الموصل ولد ونشأ بها. ولاه ملكشاه على ديار ربيعة (سنة 482) فامتلك نصيبين والموصل وسنجار والرحبة والخابور. وأقام بالموصل إلى أن توفي. انظر الأعلام. الزركلي : 22/7.

(4) هو إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الصاحب ابن عباد (326 - 385هـ= 938 - 995م). وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علمًا وفضلاً وتدبيرًا وجودة رأي. استوزره مؤيّد الدولة ابن بويه الديلمي ثمّ أخوه فخر الدولة. ولقب بالصاحب لصحبته مؤيّد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. وتوفي بالريّ، ونقل إلى أصبهان فدفن فيها. انظر الأعلام. الزركلي : 316/1.

وانظر البيت في يتيمة الدهر. الثعالبي : 443/3.

(5) قاله أبو تمام يعزّي عبيد الله بن طاهر عن ابنين طفلين ماتا في يوم واحد. انظر نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 223/5.

وطرفا التّشبيه في البيت الثّاني حسّيان، والجامع مركّب عقلي، ومنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[1]. و ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ.. ﴾ الآية[2].

ونظير إجمال النّاظم التّشبيه، ثمّ تفسير وجهه قول ابن المعتزّ[3] :

وَاللَّيـلُ كَالحلَّـةِ السَّـوْدَاءِ لاَحَ بِـهِ   مِنَ الصَّبَاحِ طِرازٌ غيرُ مَرْقُومِ

إلاّ أنّ الجامع هنا حسّيّ، وذكر الجامع من صفات المشبّه، عكس ما فعل النّاظم؛ لأنّ ما ذكر النّاظم من صفات المشبّه به كالآية الأولى.

(1) سورة النور : من الآية 39.

(2) سورة الجمعة : من الآية 5. والآية بتمامها : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

(3) انظر البيت في أسرار البلاغة في علم البيان. الجرجاني : ص 163.

في البيت الأوّل الطّباق الخفيّ؛ فإنّ المعنى : لا تَرُم الكَسْر، فإنّها لا تُكْسَر. وكذا الجمع بين "الكسر" و "التّقوية" فيه طباق. وفي قوله : "شهوتها" و "شهوة" إمّا التجنيس التّام؛ لاختلاف متعلّقهما، وإمّا التّكرير، وفائدته : أنّ الأوّل فرع، والثّاني أصل. والبيتان معًا من المذهب الكلامي، وفي البيتين النّوع المسمّى بالكلام الجامع.

[حقيقة الكلام الجامع]

وحقيقته : «أَنْ يَأْتِي الشَّاعِرُ بِبَيتٍ؛ جُمْلَتُهُ حِكْمَة أو مَوْعِظَة أَو وَصِيَّة أَو تَنْبِيه أو مَا جَرَى مَجرَى ذَلِكَ»[1].

ومنه ما بعد هذين البيتين إلى قوله : "ظلمتُ"، وهو في هذا القصيد كثير، وشعر المتنبّي هو الكفيل به، ومنه قوله[2] :

وَإِذَا كَانَتِ النفُوسُ كِبَاراً ... تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وقوله : "إنّ الطّعام.." من إرسال المثل، ومن حسن التّعليل، وجمعه بين "المعاصي" و "الشّهوة" و "الكسر"، وكذا "الطّعام" و "التّقوية" و "الشّهوة" من مراعاة النّظير.

وفي البيت الثّاني الطّباق في "تُهمله" و "تَفطمه"، ومراعاة النّظير في "الطّفل" و "الرّضاع" و "الفطام"، وفيه التّسهيم؛ لأنّك تدرك "يَنفطم" قبل ذكره.

---

(1) انظر التعريف في نهاية الأرب في فنون الأدب. النويري : 128/7.

(2) انظر البيت في يتيمة الدهر. الثعالبي : 253/1.

الْإِعْرَابُ

لا : ناهية. وتَرُم : مضارع مجزوم بها، وأصله تَرُوم، حذف الواو لالتقاء السّاكنين. وبالمعاصي : متعلّق به، والباء للاستعانة أو للسّببية، ولا تتعلّق بـ "كسر"، لأنّ معمول المصدر لا يتقدّم عليه، لأنّه موصول لتقديره بـ "أنْ" والفعل، وأن لا يتقدّم معمول فعلها عليها. وأمّا قوله : ..كَانَ جَزَائِي بِالعَصَا أَنْ أُجْلَدَا[1]. فمعمول الفعل محذوف. وكَسْر : مفعول "ترُم".

وشهوتها : مضاف ومضاف إليه. والضّمير لـ "المعاصي" أو "النّفس"، وهو الأظهر، وعلى الأوّل يكون من إضافة الصّفة إلى الموصوف معنىً؛ أيْ المعاصي المشتهاة.

ولا محلّ لجملة "إنّ الطّعام .." إلى آخر البيت؛ لاستئنافها كما تقدّم. والنّفس : مبتدأ، خبره "كالطّفل".

ولا محلّ لجُمَل الشّرطين والجوابين؛ لأنّها تفسير للتّشبيه.

وجملة "شبَّ على حبِّ الرّضاع" : في محلّ جزم؛ لأنّها جواب الشّرط، وفاعلها وفاعل "يَنْفَطِم" ضمير "الطّفل"، وفاعل "تُهْمِله" ضمير المخاطَب، ومفعوله ضمير "الطّفل".

---

(1) شطر البيت من رجز للعجاج، وهو بتمامه هو :

ربّيته حتّى إذا تمعــــدا وآض نهدًا كالحصان أجردا

كان جزائي بالعصا أنْ أُجلدا

انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي : 429/8.

الْإِشَارَاتُ

[مخالفة النّفس والمعين عليها]

وفي الحقيقة البيتان إشارة بأنفسهما، لكن لا بدّ - إن شاء الله تعالى - من الجري على العادة فيهما وفي غيرهما.

يقول : لا تساعد النّفس على هواها، فترُوم - بتمكينها من المعاصي وقضاء وطرها منها - أنْ تشبع، فتترك ما كانت عليه، وأنتَ ترى أنّ ذلك من السّياسة في محاولة إقلاعها عمّا كانت فيه، فإنّ في تمكينها من هواها - ولو من المباح - الهلاك، فكيف به من المعاصي، وهذا يؤيّد ما ذكرنا أنّه أشار في البيتين قبلهما إلى أنّه لا يرضى بما هو عليه من المعاصي، وأنْ تقلع النّفس عنها قلعًا عنيفًا، فإنّ في ذلك الصّلاح.

وفي قوله : "إنّ الطّعام" إشارة إلى أنّ المعِين على ترك المعاصي والشّهوات التزام الجوع، فإنّ كثرة الأكل تقوّي مواد النّفس؛ حتّى يكون استعمالها للمعاصي كأكل النّهِم الطّعام؛ إنْ تمادى عليه، ووجده، وقد نبّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا المعنى - حسب ما رُويناه في الصّحيح - من قوله : «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فضيّقوا مجاريه بالصّوم**»[1].

وتضمّن البيت الأوّل بشطره الأوّل التّنبيه على مخالفة النّفس، وبشطره الثّاني على المعِين على ذلك، وهو الجوع، فإنّ أوّل تمكينها من هواها كثرة الأكل، وهو السّبب الأقوى في اتّباع الهوى والمعاصي.

---

(1) رواه البخاري من غير قوله "فضيّقوا مجاريه بالصّوم" عن عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ في الاعتكاف. بَاب زِيَارَةِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا فِي اعْتِكَافِهِ. ورواه غيره.

أمّا دليل المقام الأوّل فقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[1]. والخوف يكون مع مخالفة هواها؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[2]. ومن حديث جابر[3] - رضي الله عنه - عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الْأَمَلِ، أَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فيُنْسِي الْآخِرَةَ**»[4].

واستلزم كلام النّاظم النّهي عن طول الأمل، فإنّ في رَوْم كَسْر شهوتها بالمعاصي تراخيًا عن التّوبة والإقلاع، فيُخاف أنْ يتمادى به الحال إلى الموت على حاله، كما حكي أنّ أعشى بني قيس واسمه ميمون بن قيس خرج إلى النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد الإسلام، ومدحه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصيدة، فاعْتَرَضَهُ أبو سفيان بن حرب، فَسَأَلَهُ، فأخبره بقصيدة، فَقَالَ له: يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّهُ يُحَرِّمُ الزِّنَا. فَقَالَ : ذَلِكَ الأمر لا أَرَب لي فيه. قَالَ: إِنَّهُ يُحَرِّمُ الْخَمْرَ. فَقَالَ: أَمَّا هَذِهِ، فَفِي النَّفْسِ مِنْهَا عُلالَاتٍ، لَكِنِّي أتروّى مِنْهَا عَامِي هَذَا، ثُمّ آتِيهِ، فَأُسْلِمُ . فَانْصَرَفَ

---

(1) سورة الرحمن : الآية 46.

(2) سورة النازعات : الآيتان 40 و 41.

(3) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري (16 ق هـ- 78هـ= 607 - 697م). صحابي، من المكثرين في الرواية عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروى عنه جماعة من الصحابة. له ولأبيه صحبة. غزا تسع عشرة غزوة. وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. انظر الأعلام. الزركلي : 104/2.

(4) رواه البيهقي في شعب الإيمان عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مرفوعا : 174/13. رقم الأثر 10132. ورواه غيره.

ومَاتَ من عَامِهِ، وَلَمْ يسلم[1]. نسأل الله العافية، والممات على الإسلام، والمبادرة بالتّوبة الصّادقة بمنّه وفضله.

وسُئل بعض المشايخ عن الإسلام، فقال : «ذَبْحُ النُّفوسِ بِسُيُوفِ الْمُجَاهَدَةِ». وروي : المُخَالَفَةِ[2].

وقال ذو النّون[3] : «مِفْتَاحُ الْعِبَادَةِ الْفِكْرَة، وَعَلَامَةُ الْإِصَابَةِ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ وَالْهَوَى، وَمُخَالَفَتُهما بتَرْك شَهَوَاتِهما»[4].

قال الجنيد : «أَرِقْتُ لَيْلَةً، فَقُمْتُ إِلَى وِرْدِي، فَلَمْ أَجِدْ مَا كُنْتُ أَجِدُ مِنَ الحَلاَوَةِ، فَأَرَدْتُ النَّوْمَ، فَلَمْ أَقْدِرْ، فَقَعَدْتُ، فَلَمْ أُطِقْ، فَفَتَحْتُ البَاب وَخَرَجْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ مُلْتَفٌّ فِي عَبَاءَةٍ مُلْقَى فِي الطَّرِيقِ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِي، رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ : يَا أَبَا القَاسِمِ إليَّ السَّاعَةَ. فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي مِنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ. فَقَالَ : بَلَى، سَأَلْتُ مُحَرِّكَ القُلُوب أَنْ يُحَرِّكَ لِي قَلْبَكَ. قُلْتُ : قَدْ فَعَلَ، فَمَا حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ : مَتَى يَصِيرُ دَاءُ النَّفْسِ دَوَاءَهَا؟ فَقُلْتُ : إِذَا خَالَفَتْ النَّفْسُ هَوَاهَا؛ يَصِيرُ دَاءُهَا دَوَاءَهَا. فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَالَ :

---

(1) انظر السيرة النبوية. ابن هشام : 388/1.

(2) رواية "المجاهدة" وردت في بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية. الخادمي : 3/1. ورواية "المخالفة" وردت في الرسالة القشيرية. انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 283/1.

(3) هو ثوبان بن إبراهيم الاخميمي المصري، أبو الفياض، أو أبو الفيض (.. - 245هـ= .. 859م). أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. انظر الأعلام. الزركلي : 102/2.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 283/1.

اسْمَعِي، فَقَدْ أَجَبْتُكَ بِهَذَا الجَوَاب سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَأَبَيْتِ إِلاَّ أَنْ تَسْمَعِيهِ مِنَ الجُنَيْدِ، فَقَدْ سَمِعْتِيهِ. فَانْصَرَفَ عَنِّي، وَلَمْ أَعْرِفْهُ»[1].

وأمّا دليل المقام الثّاني، فقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ إلى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[2]؛ فبشّرهم بجميل الثّواب على الصّبر على الجوع. وقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[3].

ومن حديث أنس - رضي الله عنه -: جاءت فاطمة[4] - رضي الله عنها - بِكَسْرَةِ خُبْزٍ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وفي رواية بقرص من شعير - فقال: «**مَا هَذِهِ؟**». فقالت: قرص خبزته، ولم تطب نفسي حتّى آتيك بهذه الكَسْرة. فقال: «**أَمَا إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ دَخَلَ فَمَ أَبِيكَ مُنْذُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ**»[5]. وكان سهل[6] لا يأكل الطّعام إلاّ في كلّ خمسة عشر يومًا، فإنْ دخل رمضان لا يأكل حتّى يرى هلال شوال، ويفطر في كلّ ليلة على الماء القراح[7].

---

(1) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 284/1.

(2) سورة البقرة: الآية 155.

(3) سورة الحشر: من الآية 9.

(4) هي فاطمة بنت رسول الله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عبد الله بن عبد المطلب، الهاشمية القرشية، وأمها خديجة بنت خويلد (18 ق هـ- 11هـ= 605 - 632م). تزوجها أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب في الثامنة عشرة من عمرها، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب. وعاشت بعد أبيها ستة أشهر. انظر الأعلام. الزركلي: 132/5.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 55/13 رقم الأثر 9945. ورواه غيره.

(6) أيْ سهل بن عبد الله التستري، وسبقت ترجمته.

(7) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 270/1.

وقال يَحْيَى بْنُ مُعَاذ[1] : «لَوْ أَنَّ الْجُوعَ يُبَاعُ فِي السّوق، لَمَا انْبَغى لطالب الْآخِرَةِ أَنْ يَشْتَرِي إذا دخله غَيْرَهُ»[2]. وقال سهل : «لَمَّا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الدُّنْيَا، جَعَلَ فِي الشِّبَعِ المعصية وَالْجَهْلَ، وَفِي الْجُوعِ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ»[3]. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ : «الْجُوعُ لِلْمُرِيدِينَ رِيَاضَةٌ، وَلِلتَّائِبِينَ تَجْرِبَةٌ، وَلِلزُّهَّادِ سِيَاسَةٌ، وَلِلْعَارِفِينَ تَكْرُمَةٌ»[4].

وأقلّ مفاسد الشّبع أنْ يُكْسِل عن الطّاعات إنْ لم يُوقِع في المعاصي، ففي الخبر : «لاَ تَأْكُلُوا كَثِيرًا، فَتَشْرَبُوا كَثِيرًا، فَتَرْقُدُوا كَثِيرًا، فَتَتَحَسَّرُوا.. كَثِيرًا»[5]. ثمّ شبّه النّفس بالطّفل؛ تنبيهًا على أنّها - لفرط اتّباع شهواتها - تجهل من أمور مصالحها ما يجهل الصبيّ، فينبغي أنْ تُجعل بيد من أكرمه الله تعالى بالتّقوى حتّى يربّيها كما يربّى الصبيّ، وأنْ لا تُهمل للشّهوات، كما لا يُهمل الصبيّ للرّضاع، وأنْ يُقلع عنها بعنف، وإن أضرّ بها في الحال، كما يُفْطَم الصبيّ بعنف، وإنْ شقّ ذلك عليه.

ويكفي هذا القدر من الإشارات، فإنّ في تتبّعها خشية السّآمة. أعاننا الله على مخالفة هوى أنفسنا بمنّه وكرمه.

---

(1) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، أبو زكريا (..- 258هـ=..- 872م). واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الريّ. أقام ببلخ، ومات في نيسابور. له كلمات سائرة. انظر الأعلام. الزركلي : 172/8.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 270/1.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 271/1.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 271/1.

(5) هذا الأثر مروي عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ يحكيه عن عالم من بني إسرائيل. انظر جامع العلوم والحكم. ابن رجب الحنبلي : ص 428.

فَاصْـرِفْ هَوَاهَـا وَحَـاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَـهُ ... إنَّ الهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
وَرَاعِهَا وَهْيَ فِي الأَعْمَالِ سَائِمَةٌ ... وَإنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ المَرْعَى فَلاَ تُسِمِ
كَـمْ حَسَّـنَتْ لَـذَّةً لِلْمَـرْءِ قَاتِلَـةً ... مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ
وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَـرُبَّ مَخْمَصَـةٍ شَـرٌّ مِـنَ الـتُّخَمِ

شَرْحُ الغَرِيْبِ

فاصرف : ادْفَع، أو رُدَّه على وجهه. صَرَفْتُ الرجل عنّي، فانْصَرَفَ. والمُنْصَرَفُ؛ مكان أو مصدر. وصَرَفْتُ الصّبيان : قَلَبْتهم. وصَرَفَ الله عنك الأذى. واسْتَصْرَفْتُ الله المَكارِهَ؛ أيْ سألته صرفها[1].

والهوى : تقدّم تفسيره.

وقال ابن عطيّة[2] : أكثر استعماله في الباطل، ومن استعماله في الحقّ قول عمر في أسرى بدر : «فهَوِيَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال أبو بكر، ولم يَهْوَ ما قلت»[3]. رضي الله عنهما.

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1386/4. مادة صرف.

(2) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية، الغرناطي، أبو محمد (481 - 542هـ= 1088 - 1148م). مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة، له شعر. ولي قضاء المرية، له (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز). انظر الأعلام. الزركلي : 282/3.

(3) انظر المحرر الوجيز. ابن عطية : 159/1.

وحَاذِر : أيْ تَحَرَّز. والحِذْرُ والحَذَرُ: التَحَرُّزُ. وقد حَذَرْتُ الشّيءَ أَحْذُرُهُ حَذَراً. ورجل حَذِرٌ: مستيقظ مُتَحَرِّز. والجمع حَذِرونَ. ويتعدّى هذا الوصف؛ ومنه[1] :

حَـذِرٌ أمـوراً لا تُخـاف وآمِـنٌ مَـا لَـيْس مُنْجيـهِ مِـنَ الأقْـدَارِ

ويروى : "لا تَضِيرُ". أنشده سيبويه، وهو نادر.

والتَحْذيرُ : التّخويفُ. والحِذارُ : المُحاذَرَةُ. وابنُ أَحْذارٍ؛ أيْ ابنُ حزْمٍ. وحَذْرٍ، وحَذارِ؛ أيْ احْذَرْ. والمَحْذُورةُ : الفزعُ. وقُرئَ : ﴿**لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ**﴾[2]. أيْ متأهِّبون. و ﴿**حَذُرُونَ**﴾ - بضمّ الذّال - أيضاً؛ حكاه الأخفش، ومعناهما خائفون. وحِذْرِيانٌ : شديد الفزع والحَذَرِ[3].

وتُوَلِّيه : أيْ تُؤَمِّره مِن الإمارة، وهي الوِلاية . ويُروى : "تُوَالِيهِ"؛ أيْ تُتابعه. تقول من الأوّل : وَلِي الوالي البلد يَلِيه - بالكسر فيهما، وهو شاذ - وكذا البيع ولايةً فيهما[4]، وفلان وَلِيَ ووُلِيَ عليه، ووَلاّهُ عملَ كذا وبَيْعَه. وتوَلّى العملَ، تقلّده. ومن الثّاني : وَالَى بينهم وِلاءً؛ أيْ تابَعَ. وافْعَلْه على الوِلاءِ؛ أيْ متابعةً. وتَوالى عليه شهران؛ أيْ تتابع[5].

---

(1) روي عن المازني أنّ أبا يحيى اللاحقي قال : سألني سيبويه عن شاهد في تعدي "فَعِل" فعملت له هذا البيت.

(2) سورة الشعراء : الآية 56. وهذه قراءة عاصم، وأما قراءة نافع فهي : "حذرون".

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 626/2. مادة حذر.

(4) أيْ: ووَلِيَ الرجلُ البَيْعَ، وِلايَةً فيهما.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 2529/6. مادة ولي.

ويُصْمِ الأوّل : - بضمّ الياء رباعي -؛ أيْ يقتل، مِن أَصْمَيْتُ الصّيدَ؛ إذا رَمَيتَه؛ فقتلتَه وأنتَ تراه. وفي الحديث : «**كُلْ ما أَصْمَيْتَ، ودَعْ ما أَنْمَيْتَ**»[1].

ومعنى أَنْمَيْتَ؛ أيْ رميتَه، فغابَ عنك، ثمَّ مات، والنّامي : النّاجي.

وصَمَى الصّيد يَصْمي؛ إذا مات وأنتَ تراه.

ويحتمل ما في البيت أنْ يكون مِن أصْمَى الفرسُ على لجامه؛ إذا عضَّ عليه ومضى[2]. وهو قويّ المناسبة لقوله : "مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحِ..".

وقوله : "**أو يَصِمِ**" : - بفتح الياء، ثلاثي -؛ أيْ يَعِيب، مِن وَصَمَه يَصِمُه وَصْمًا؛ إذا عابَه. والوَصْمُ : العَيْب والعَار. يُقال : ما في فلان وَصْمَةٌ. والوَصْمُ أيضاً : الصّدعُ في العود من غير بينونة. يقال : بهذه القَنَاة وَصْمٌ[3].

وراعِهَا : قيل : معناه انظر إلى أيْ شيء تَصيرُ، أو لاحظها. وقيل : تتبّع أحوالَها بالاختيار. وقيل : انظر إليها واستمِع. وهذا قلق.

قال الجوهري : «راعَيْتُ الأمر : نظرتُ إلى أين يصيرُ. وراعيتُه : لاحظتُه، وراعَيتُهُ من مُراعاةِ الحقوق. والحمار يُراعِي الحُمُرَ؛ أيْ يَرْعى معها. واسْتَرْعَيْتُهُ الشّيء مُراعَاة. وفي المثل : "مَن اسْتَرْعى الذئبَ فقَد ظَلَم"»[4]. وفروع هذه المادّة كثيرة.

---

(1) هو جزء من حديث رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس مرفوعا : 27/12 رقم الحديث 12370. ورواه غيره.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2404/6. مادة صما.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 2052/5. مادة وصم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2358/6. مادة رعى.

والأعمال : أعمال الخير أو الشرّ، أو بالإطلاق، واحدُها عَمَل، وهو مصدر عَمِل.

وسائمة : أيْ رَاعِية، والسَوَامُ والسّائِمُ : المالُ الراعي. وسامَت الماشيةُ تَسُومُ سَوْماً : رَعَتْ، فهي سائِمَةٌ. وجمع السَائِمَةِ والسَائِمِ سَوائِمُ. وأَسَمْتُها : أخرجتُها للرَعْي. ومنه : ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾[1].[2]

واسْتَحْلَت : استفعل مِن الحَلاَوَة، وأصله اسْتَحْلَوْت؛ قُلبت الواو ألفًا لتحرّكها وانفتاح ما قبلها، ثمّ حُذفت لالتقائها ساكنةً مع تاء التّأنيث، ومعناه : وَجَدتُ المرعى حُلوًا، فاسَتَفْعَلَ هنا لإلفاء الشّيء؛ بمعنى ما صُنع منه، أو لِما ظُنّ أنّه كذلك، نحو : استعظمه واستصغره واستحسنه واستقبحه؛ أيْ وجده أو ظنّه كذلك، ويُقال : حَلا يَحْلُو حَلاوَةً. واحْلَوْلى مثله. ولم يتعدّ إلاّ في قوله[3] :

فَلَمَّا أَتَى عَامَانِ بَعْدَ انْفِصَالِهِ عَنِ الضَّرْعِ وَاحْلَوْلى دِمَاثاً يَرُودُها

وفي قولهم : "اعْرَوْرَيْتُ الفرسَ". وأَحْلَيْتُهُ؛ جعلته حلوًا، ووجدتَه حُلْواً أيضاً. وما أَمَرَّ وما أحْلى : لم يقل شيئاً. وحالَيْتُهُ : طايَبْتُهُ. والحُلْوى: نقيض المُرَّى. وتَحالَتِ المرأةُ : أظهرتْ حلاوةً وعُجْباً[4].

---

(1) سورة النحل : من الآية 10.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1955/5. مادة سوم.

(3) القائل هو حميد بن ثور. انظر البيت في اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي. أبو العلاء المعري : ص 1091.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 6/ 2317. مادة حلا.

والمَرْعَى : يحتمل أن يكون اسمًا لِما يُرعَى؛ كالرِّعى – بكسر الرّاء – وهو الكلأ. وأنْ يكون مصدر رَعَيْتُه كالرَّعي – بفتحها –، وأنْ يكون للموضع أو للزّمان. وفي المثل : "مَرْعَى ولا كَالسَّعدانِ". وجمع الرَّاعِي رُعَاة ورُعْيَان كشُبَّان، ورِعاءٍ كجياع. ويَرْعَى على أبيه؛ أيْ غَنَمه. وتُرْعِيَّةٌ – بضمّ التّاء وكسرها وشدّ الياء – وتِرْعَايَةٌ : لمن يُجيد رِعْيَة الإبل. والرَعَاوِي بفتح الرّاء وضمّها : الإبل تَرْعى حوالي ديار القوم. لأنّها الّتي يُعتَمَل عليها[1].

وتُسِمِ : مضارع أَسَمْتُ المتقدّم، وأصله "تُسِيم"، حُذفت الياء لماّ سكّن الميم للجزم، وحركته بعد عارضة؛ لأنّ القافية مطلقة، فكذا لم ترد الياء.

وحَسَّنَت : زَيَّنَتْ. وحَسَّنْتُ الشّيءَ تَحْسِينًا : زَيَّنْتُهُ. وأَحْسَنْتُ إليه وبه، ويُحْسِنُ الشّيء؛ يَعْمَلُهُ، ويَسْتَحْسِنُه : يَعُدُّه كذلك[2]. وفروع المادة كثيرة.

وتقدّم تفسير **اللّذّة**.

والمرء : الرّجل، وتفتح فاؤه الّتي هي الميم، وتُضمّ أيضاً مطلقًا مع سكون الرّاء فيهما، وتتبع حركة إعرابها أيضاً هي وراءه الّتي هي العين، فهذه ثلاث لغات. وهما مَرْآنِ، ولا تُجْمَعُ على لفظه. وبعضهم يقول : مرأةٌ، ومَرَةٌ؛ ينقل حركة الهمزة للرّاء وحذفها، وفيه مع همزة الوصل ثلاث لغات؛ فتح الرّاء، وضمّها، واتّباعها حركة الإعراب، وأمّا امْرَأة، فمفتوحة الرّاء على كلّ

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 2358/6. مادة رعى.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2099/5. مادة حسن.

حال. وتصغيرهما بترك الهمزة : مُرَيء ومُرَيْئَة. وربَّما قيل للذّئب امْرَؤ. وقالت عربية : أنا امْرُؤٌ لا أخْبرُ السِرَّ. والنّسب إليه : مَرَئي وامرِئ[1].

ولم يَدْرِ : أيْ لم يَعْلَم.

والسُمّ بضمّ السّين وفتحها : القَاتِل؛ قاله الجوهري. وقال بعضهم : «هو الشّيء القائم به ما هو سبب للقتل إذا تناوله الآكل».

قال الجوهري : «ويُجمع على سُمومٍ وسِمامٍ. وسَمَّهُ : سقاه السَمَّ. والطعام : جعله فيه. والسامَّةُ : ذات السّموم. وسامُّ أبرصَ من كبار الوَزَغِ»[2].

والدّسَم : الودك، ودَسِمَ – بالكسر – يَدسَم دَسَما : صار ذا دَسَم، وتَدْسيمُ الشّيء : جعْل الدَّسَمِ عليه. ودَسَّمَ المطرُ الأرضَ : بَلَّها ولم يُبالِغ[3].

واخْشَ : أيْ خفْ، وخَشيَ يَخْشَى خَشْيَةً؛ خاف، فهو خَشْيانُ، والمرأة خَشْيَاءُ. وخاشاني فخَشَيتُهُ أَخْشيهِ – بالكسر –؛ كنت أشدّ خَشْيَةً منه. وذا المكان أَخْشَى من ذاك؛ أيْ أخوف. وخَشَّاهُ تَخْشيةً؛ خوَّفه[4].

والدّسائس : جمع دَسِيسَة، وهي المكر الخفيّ، والدَسِيسُ : إخفاء المَكر. ودَسَسْتُه في التّراب : أخفيته فيه. والدَسَّاسَةُ : حيّةٌ صمَّاءُ تندسُّ تحتَ التّراب اندِسَاساً، أيْ تندفن[5].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 72/1. مادة مرأ.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1953/5. مادة سمم.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1919/5. مادة دسم.

(4) انظر الصحاح. الجوهري : 2327/6. مادة خشى.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 928/3. مادة دسس.

ويُروى : **الدّواخل**، ولعلّه جمع داخلة؛ أيْ باطن الأمر، ومنه دَاخِلَة الإزار؛ لطرفه الّذي يلي الجسد، ودَاخِلَة الرّجل : باطن أمره، وكذا الدُخْلَةُ – بالضمّ –، يقال : هو عالمٌ بدُخْلَتِهِ، ودُخَيلَتِه ودُخْلُلهُ : الّذي يُداخِلُهُ ويختص به، ويحتمل أن يكون مِن الدَخْل؛ وهو العَيب والريبةُ. ومن كلامهم : "ترى الفتيان كالنّخل، وما يُدريك بالدَّخْل". وكذا الدّخَل بالتّحريك. يقال : فيه دَخَلٌ ودَغَلٌ بمعنىً، ومنه : ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾[1]؛ أيْ مكرًا وخديعة[2].

والجوع والشّبع : معروفان، ويقال : شَبِعْتُ خبزًا ولحمًا، ومِن خبز ولحم شبعًا. وهو من مصادر الطّبائع[3].

---

(1) سورة النحل : من الآية 94.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1696/4. مادة دخل.

(3) انظر الصحاح. الجوهري : 1234/3. مادة شبع.

[خَلْقُ الجوع والشّبع في مذهب أهل الحقّ]

وهما غرضان متضادّان، يخلق الله تعالى الجوع عادةً عند خلاء المعدة من الطّعام، والشّبع عند وجوده فيها، وقد يخلقهما مع غير ذلك، هذا هو مذهب أهل الحقّ[1].

والمخمصة : المجاعة، وهو مصدر كالمَغْضَبَة والمَعْتَبَة، وخَمَصَهُ الجوع خَمْصاً ومَخْمَصَةً. والخَمْصَةُ : الجوْعَةُ. يقال : ليس للبِطْنَةِ خيرٌ من خَمْصَةٍ تتبعها. وخُمْصانٌ وخَميصُ الحَشا؛ ضامرُ البطنِ. والمرأة خَميصةٌ وخُمْصانَةٌ[2].

والتُّخَمِ : جمع تُخمة، وهو فساد الطّعام في المعدة.

قلتُ : كذا في شرح الأستاذ القصّار، والصّواب فساد المعدة بالطّعام؛ لأنّ كلّ طعام يدخل المعدة غالبًا يفسد، وقد لا تكون التّخمة، إلاّ أن يزيد فسادًا خاصًا، فيصحّ.

وفُسّرت أيضاً بأنّها ضدّ المخمصة، ولا يصحّ، فإنّ الشّبع ضدّها وإن لم يَتْخَم. ويُقال: تَخِمَ يَتْخَمُ - بكسر الماضي وفتح المستقبل،

---

(1) أقول : مذهب أهل الحق أنّ الله تعالى قادر مختار فلا يجب عنه صدور شيء من الممكنات، ولا يجب عليه أيضاً ولا علاقة بوجه بين الحوادث المتعاقبة إلاّ بإجراء العادة بخلق بعضها عقيب بعض؛ كالاحراق عقيب مماسة النار، والريّ بعد شرب الماء، فليس للمماسة والشرب مدخل في وجود الإحراق والريّ، بل الكل واقع بقدرته واختياره تعالى، فله أن يوجد المماسة بدون الإحراق، وأن يوجد الإحراق بدون المماسة. انظر المواقف. الإيجي : 143/1.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 1038/3. مادة خمص.

وبالعكس -. وأصل التُّخْمَة وُخْمَة، فأُبدلت الواو تاءً. ووَخِمَ – بالكسر -؛ أيْ اتَّخَم. واتَّخَمْتُ من الطعام وعنه، والاسم التُخَمَةُ بالتّحريك؛ كوُكَلَة وتُكَلَة، والجمع تُخماتٌ وتُخَمٌ. وأتْخَمَهُ الطعام، أصله أوْخَمَهُ. وطعامٌ مَتْخَمَةٌ – بالفتح – أصله مَوْخَمَةٌ. وتوهّموا التّاء أصلية لكثرة الاستعمال، والعامة تسكن التُخْمَة، وجاء في شعر أعرابي[1] :

وإذا المِعْـــدَةُ جاشَـــتْ فارْمِهـــا بـــالمَنْجَنيقِ

بـــثَلاثٍ مِـــنْ نَبيـــذٍ لَـــيسَ بـــالحُلْوِ الرّقيـــقِ

تَهْضـــم التُخْمَـــةَ هَضْـــماً حِينَ تَجْرِي فِي العُرُوقِ[2]

(1) ورد في الصحاح : وجاء في شعر أنشده أعرابي. وورد في تاج العروس للزبيدي ولسان العرب لابن منظور: أنشده ابن الأعرابي. انظر المصدرين في مادة وخم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2049/5. مادة وخم.

التَّفْسِيْرُ

[التّحذير من اتّباع هوى النّفس]

لمّا شبّه النّفس بالطّفل، وذكر وجه الشّبه - وبيّنا أنّه خرج من كلامه أنّها جاهلة بمصالحها كالصبيّ، وكان الصبيّ لا يُؤمر ولا يُنهى، فلا يقال له : لا تتمادى على الرّضاع. لأنّه لا يفهم ذلك، وإن فهمه، فلا يمتثل لحبّه في الرّضاع، وإنّما الشّأن في إزاحته عنه أن لا يُمكّن منه - أمر هنا بصرف الهوى عن النّفس؛ أيْ بدفعه عن حضرتها، وتغييبه عنها حتّى لا تجده فتعلق به، ولم يقل اصرف النّفس عن هواها؛ لأنّها لا تفهم هذا المعنى، أو تفهمه ولا تمتثل كالصبيّ، وقوله : "هواها"؛ أيْ مَهْوِيَها، ويصحّ أن يراد المصدر.

وقوله : "وحاذر"؛ أيْ احذر وتحرّز مِن أنْ تَوَلّيه؛ أيْ من أنْ تتركها وإيّاه، فتكون قد جعلته عليها أميرًا وواليًا، لأنّها لمّا كانت لا تخالف هواها، صار كالأمير والوالي، وهي مولى عليها تنقاد إلى أحكامه، وتُسارع إلى طاعته، وليس مثل الهوى الّذي يقود إلى الهلاك ينبغي أنْ يُولّى؛ لأنّه إذا تولّى لا بدّ أنْ يقتل أو يعيب، وهو أقلّ الأمرين، وهذا معنى قوله : "إنّ الهوى ما تولّى"؛ أيْ أنّى تولّيه تولّى في أيْ مدّة ولّيته يُصْمِ؛ أيْ يقتل، أو يَصِمِ؛ أيْ يعيب.

وأمّا على رواية "أنْ تُوَالِيه" و "تَوَالَى"؛ فالمعنى : تحرّز من أن تتابع هواها، بل إنْ عثرت فيه يومًا، فاكبحها بلِجام النزع، فإنّ الهوى إنْ تتابع على النّفس أو على غيرها يقتل أو يعيب. وإليك التّرجيح بين الرّوايتين. ويمكن ردّ الأولى إلى الثّانية، ولا يخفى عليك.

ولا يُقال : إنّ الأولى أرجح؛ لأنّها إذا حذّر من توليتها، فقد نهاه أن يجمع بينها وبين هواها ولو مرّة، بخلاف تحذيره من متابعته، فإنّه لا يستلزم النّفي عنه جملة، بل عن المتابعة خاصّة.

لأنّا نقول : معنى التّحذير مِن التّولية؛ أن لا يجعل الهوى أميرًا على النّفس، بحيث يأمرها فتطيعه، ولا يلزم منه التّحذير مِن أن تكون النّفس أميرة عليه، يمتثل هو أمرها، لأنّ مقتضى كونها أميرة؛ بحيث تطرده وتصرفه عنها إن شاءت، لا ينافي مقصود النّاظم، وكذا لا يلزم منه النّهي عن اجتماعهما على سبيل المساواة، وأن لا يتأمّر أحدهما على الآخر، فإن لم تترجّح الثّانية بكونها تقتضي أن لا يجامع الهوى النفس إلاّ مرّة، لأنّ ما زاد عليها متابعة، فلا أقل من تساويهما.

فإن قلتَ : إنّك قلت أوّلا : إنّها لا تصلح للخطاب بأنْ تقلع عن هواها. فكيف يُتوهّم هنا أن تكون هي الأميرة؟

قلتُ : ذلك على سبيل المبالغة في أن لا يستأمن إليها في صرف الهوى لحبّها فيه، وهو مناسب أن لا يأتي بلفظ يوهم خلاف ذلك.

فإنْ قلتَ : ظاهر كلامه أنّ النّفس تُصرف عن كلّ ما تهواه حتّى عن الطّاعة إن هوتها وعن المباح، لأنّ هواها اسم جنس أُضيف فيعُمّ، وكذا تعليله بقوله : "إنّ الهوى.." لتعريف اسم الجنس فيه بـ «أل» يعُمّ أيضاً، وهذا لا يصحّ على إطلاقه.

قلتُ : هذا وارد، ولكنّه أزال هذا الإشكال، وبيّن هذا الإجمال في البيتين بعده، فقال: "ورَاعِها.."؛ أيْ لاحظ نفسك، والحال أنّها سائمة؛ أيْ راعية في الأعمال؛ كملاحظة الرّاعي غنمه أو غيرها وهي سائمة في أنواع الكلأ، فما ينفعها منه أقرّها على رعيه، وأَقْدَمَها عليه، وما يضرّها منه جنّبها إيّاه، وإنْ أعجبها.

وقدّمنا أنّه يحتمل أنْ يريد أعمال الخير أو المباح أو كليهما، والأظهر مِن الاحتمالات أنّه أراد أعمال الخير والطّاعات، لأنّا قدّمنا أنّ أكثر استعمال الهوى في المكروه، فإذا أمر بصرفه لم يبق ما ينبغي أن يأمر بالتزامه والتلبّس به إلاّ الخير. ثمّ لمّا كان للنّفس حظ في أفعال بعض العبادات كالّتي يلحقها الرّياء، ويُمدح الإنسان من أجل فعلها، فهي قد تهواها لذلك، ثمّ قد يخفى على صاحبها هذا القصد الخبيث منها، فهو ينظر إلى صورة العبادة، ولا يتفقّد ما اندسّ في مخبآتها، نبّه على ذلك، وقال : وكما أنتَ مأمور بالحذر من تَولية الهوى أو تُواليه، أنتَ مأمور برعايتها حال سومها في الطّاعات؛ لئلاّ يكون لها فيها حظ، فيفعلها لذلك الحظّ، لا قصد ما عند الله مولاها، فتهلك، ثمّ أعطى ضابطًا لذلك، ونصب علامة على وقت تفقّدها، فقال : وإنْ هي استحلتْ المرعى؛ أيْ وجدته حلوًا، أو عدَّته حلوًا، فانهمكتْ فيه، أو همّتْ بالعكوف عليه، فلا تُسِمها؛ أيْ فلا تخرجها إلى ذلك المرعى، أو لا تمكّنها منه، حتّى تتفقّد دسائسها تَفَقُّدَ الرّاعي الرّوض المريع[1]،

(1) المريع : الخصيب، والجمع أمرع.

لعلّ فيه ما يقتل أو يُلِمُّ ممّا يُنبت الرّبيعُ[1]، لأنّ النّفوس البشريّة - إلاّ من رحم الله - لا تهوى الطّاعة مِن حيث هي طاعة، فإذا استحلتها ومالت إليها أمكن ذلك أن يكون لغرض لها في ذلك، فيعود هواها المكروه المأمور بصرفه عنها، وتنقلب الطّاعة معصية.

ثمّ استشهد على هذا المعنى الّذي أمر بملاحظته بقوله : "كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً.." أيْ كثيرًا ما زيّنت النّفس لذّة قاتلة للمرء، فوقع فيها لتزيينها له، ولم يدر أنّها قاتلة؛ لأنّه لم يختبر باطنها، ولم يتفقّد دسائسها، فهو من تلك الحيثية بمثابة مَن لم يدْرِ أنّ السمّ دُسّ له في الدّسم؛ أيْ في الودك، فأكله، ولم يتفقّد باطنه ممّا دُسّ فيه، وخُصّ الدّسم لكونه يعلُو الأشياء فيستر ما تحته، كصورة العبادة الساترة لِما بَطُن مِن النّية الخبيثة، أو لأنّ الدّسم لسهولة امتزاج السمّ به يخفى إلاّ على المتفقّد اللّبيب، كخفاء النّيات في العبادات، فمراده باللذّة على هذا التذاذها بالطّاعة.

(1) أخذه من قول النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ أَوْ يُلِمُّ**».أيْ يَقرُب من ذلك. رواه البخاري في الزكاة، بَابُ الصَّدَقَةِ عَلَى اليَتَامَى. ورواه غيره.

[إخفاءُ النّفس المكرَ في قليل العبادة وكثيرها]

وقوله : "وَاخْشَ الدَّسَائِسَ.." على هذا النّمط أيضاً؛ أيْ اخش ما تُخفيه النّفس مِن المكر حال تلبّسها بقليل العبادة وكثيرها، وكنّى عن قليلها بالجوع وعن كثيرها بالشّبع، ووجْهُه أنّه لمّا كان اللاّئق بحال المكلّف صرف الهمّة إلى ما ينفعه في الدّار الآخرة مِن ثواب ربّه؛ لأنّ هذه الدّار إنّما هي لاتّخاذ الزّاد والبُلغة إلى تلك، كانت الآخرة هي محلّ العيش حقيقة، ومَن ادّخر قليل القوت يُقال إنّه جائع، ومَن ادّخر كثيره يُقال إنّه شبعان، دليله ما رُوينا في كثير من كتب السّنن من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ**»[1]. ومفهومه يقتضي أنّ البيت الّذي فيه التّمر شباع أهله.

ووجه إخفائها المكر في قليل العبادة؛ أنْ تزيّن لصاحبها أنّ الاستكثار من العبادة يضرّ بالبدن، فيؤدّي إلى العجز بالكلّية، أو في الكثير منها الرّياء، فلازِم القليل، وداوِم عليه ونحو هذا، وقد يكون قصدها في هذه النّصيحة الميل إلى الرّاحة وترك الجدّ. ووجه إخفائها إيّاه في الكثير؛ أنْ تزيّن له الاستكثار لتكثير الثّواب وتكفير السيّئات الّتي لا يخلو منها إلاّ مَن عصمه الله من البشر ونحو هذا. وقد يكون قصدها بهذا؛ أنْ يلازم صاحبها العبادة ويجدّ فيها، حتّى يشتهر بذلك، فيجلّ في النّاس ويعظم في عيونهم، حتّى لو أمرهم بأمر لبادروا إلى امتثاله، وهذا

---

(1) رواه مسلم عَنْ عَائِشَةَ مرفوعا في الأشربة. بَاب فِي ادِّخَارِ التَّمْرِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْأَقْوَاتِ لِلْعِيَالِ. ورواه غيره.

هو الغاية القصوى مِن مطالب النّفس المهلكة، فإنّه حينئذ يقصد بعبادته تلك غير وجه الله تعالى، وذلك هو الشّرك والعياذ بالله، أو يؤدّي إليه، وهذه مفسدة عظيمة أكبر من الأولى في الظّاهر، وهي في مقابلة مفسدة التّخمة النّاشئة عن كثرة الأكل، أو كالنّاشئة عن كثرة جمع القوت والأموال، لأنّ كثرة الجمع لا يتأتّى في الأكثر إلاّ مع منع الحقوق الواجبة والمندوبة، لكنّ هذه المفسدة، وإن كانت عظيمة، إلاّ أنّ مع الاستكثار من العبادة، قد يسلم له كثير منها، وإن كان يقصد ببعضها الرّياء؛ كالفرائض الّتي لا رياء فيها، وما يفعله منها خاليًا وغير ذلك؛ إذ الغالب على من اتّصف بالإيمان هذا، وإن كانت شهوة النّفس تغلّبه أحيانًا، والّتي تنشأ عن تقليل العبادة أعظم مفسدة من هذه، لأنّ ذلك قد يؤدّي إلى ترك الفرائض والعياذ بالله؛ لأنّه إذا كان لا يلاحظ مَن رآه لئلاّ يقع في الرّياء بزعمه، لا يبالي بما يأتي ولا بما يذر، وقد جاء : «أنّ مَن تَساهلَ بِتركِ الآداب ابتُلي بِتركِ الفَضائلِ، وتَاركُ الفَضائلِ يُبتلى بِتركِ السُّننِ، وتَاركُ السُّننِ يُبتلى بِتركِ الفَرائضِ، ويُخافُ بَعدُ مِن تَركِ الإيمانِ، والعياذ بالله». وقد كان بعض أشياخنا - رضوان الله عليهم - يقول : «اجْتَهِدُوا في إصْلاَحِ ظَوَاهِرِكم، فَإنكُم إنْ فَعَلتُم يُوشِكُ أنْ تَصلح بَواطنُكم». ويُحكى أنّ واحدا تعبّد سنين كي يشتهر بذلك، فتُحطّ عنده الأمانات لينتفع بها، فلم يحطّ أحد عنده شيئًا، فلمّا طال الأمر عليه وبّخ نفسه، وقال : «لَوْ أَنَّ هَذِهِ العِبادةِ لِطَلَبِ مَا عِندَ اللهِ لَكَانَ الفَوزُ العَظيمُ». فعقد نية التّوبة جزمًا، فلمّا أصبح أُتي بأمانة، فقال لصاحبها : «مَا كَانَ بَينَنَا وَبَينَهَا إلاّ ظَلاَمُ البارِحةِ، اذْهَب بِسَلاَمٍ». ولعلّ هذا من بركة العمل الصّالح.

[مراعاة النّفس عند تناولها المباحات]

فقد ظهر أنّ الخصلتين كلتيهما شرّ، وأنّ قلّة الطّاعة المكنّى عنها بالجوع والمخمصة أشرّ من كثرتها الكائن في بعضها رياء، وهي المكنّى عنها بالشّبع والتّخم، وتحقّق أنّ في الكثرة ما ينفع إنّه ذكر التّخم الّذي فيه زيادة على الكثرة. هذا كلّه إنْ أراد بالأعمال الطّاعات، وإن أراد بها المباحات، فمعنى كلامه : راعِ النّفس - والحال أنّها متناولة من المباحات - على قدر الحاجة والضّرورة، وإنْ هي استحلت المرعى في بعضها، واستكثرت منه أو مالت إليه، فلا تُسمها فيه، لأنّ حبّك الشّيء يُعمي ويَصِم، فتؤدّي محبّتها في ذلك الشّيء إلى سعيه في حصوله ولو بالمعصية، كما ترى شديد الحبّ للمال يستسهل الوقوع في الرّبا، وكذا إن استحلت الزّهد فيه وتركه، فلا تستأمن إليها، لأنّها قد تقع بذلك في المعاصي، كمن له مال حلال، فتزيّن له النّفس أن يفرّقه في المساكين، ويصبر هو على تحمّل الجوع وغيره من مضرّات الفقر لإنالة الثّواب، فإنّ هذا إن لم يكن مندوبًا فهو مباح، وإن كان الحكم في هذا يختلف باختلاف النّاس، لكن هذا من حيث الجملة، وهذا التّزيين الّذي زيّنت قد يوقع فيما هو أعظم مفسدة من الأوّل، إذ قد لا يصطبر بعد إتلاف ماله على تجرّع مرارة كأس الفقر، إذ قد كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا[1]،

---

(1) أصل هذه العبارة جزء من حديث نبوي رواه البيهقي في شعب الإيمان عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ مرفوعا : 12/9. رقم الحديث 6188. ورواه غيره. وإسناده ضعيف.

فيحمله ذلك على تكسّب المال من غير حلّه بأنواع المظالم وغيرها، فيصير ماله كلّه حرامًا، وأين هذا من مفسدة الأوّل الّذي قد يقع في الرِّبا يومًا ما، هذا أشرّ، وهو الّذي بمثابة الجوع والمخمصة، والأوّل بمثابة الشّبع والتّخم، ولم يخف عليك دسيسة الأوّل والثّاني.

وأبيه بعد أن كبر : «يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

فهذه وجوه في تقدير معنى قوله : "ورَاعِها.." البيت، وقوله : "واخْشَ.." البيت. وهي إن شاء الله كافية ظاهرة، وهناك تقديرات أُخر تركناها خشية السآمة.

وأمّا قوله : "كَمْ حَسَّنَتْ.."، فمعناه - حسبما قرّرناه قبلُ - جارٍ مع هذه التّقديرات كلّها، لا يختلف إلاّ في قوله : "لذّة"، فإنّ المراد بها يختلف بحسب التّقديرات، وهنا وجه قريب في تقرير البيتين مفرّع على أنّ المراد أعمال الطّاعات، بأنْ يكون المعنى "رَاعِها" حالة رَعْيها في أعمال الطّاعات، وطالما رأيتَها تَسْتَحْلِ نوعًا منها، بل تأخذ مِن كلّها على قَدَر، فأَسِمها كذلك، ولا تكفّها، وإنْ هي استحلتْ المرعَى في نوع منها، وتركَتْ غيره، وأجهدت جهدها في كلّها، بحيث لم تأخذ في شيء من مصالحها الدّنيوية، فلا تُسمها كذالك،

الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة. ومولده ووفاته فيها. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. انظر الأعلام. الزركلي : 108/4.

(1) الحديث بتمامه : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو : «**كَيْفَ تَصُومُ؟**» قَالَ : كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ : «**وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟**»، قَالَ : كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ : «**صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةً، وَاقْرَإِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ**» قَالَ : قُلْتُ : أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ : «**صُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ**»، قُلْتُ : أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ : «**أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا**» قَالَ : قُلْتُ : أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ : «**صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً**» فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ. رواه البخاري في فضائل القرآن. بَاب فِي كَمْ يُقْرَأُ القُرْآنُ. ورواه غيره.

لأنّ في الحالة الأولى تفويت كثير من الثّواب، وإنّما نوّع الشّارع العبادات للإنالة من كلّها. وفي الثّانية إضرار بالبدن، والإفراط في الشّيء كالتّفريط فيه، فأخّرها على سيّء القصد، وإلاّ فالإفراط فيما يُظنّ مصلحة يؤول إلى المفسدة. ألا ترى أنّ الجوع مصلحة للبدن، لأنّ كثرة الأسقام مِن غلبة بعض الأخلاط، وهي تكون من كثرة الغذاء، وذلك مأمون مع الجوع، ولهذا كان الشّبع مفسدة، لكنّه إن أفرط الجوع أفنى البدن؛ لجفاف رطوباته وتحليل جواهره بالحرارة الّتي لا تجد ما تشتغل فيه من الغذاء، فتأكل أجزاء البدن، فيجفّ البدن، وهذه مفسدة أشرّ من مفسدة التّخم، لأنّها تنجبر بترك الأكل أدنى زمان، وإنّما مثّل بالجوع والشّبع، لأنّا قدّمنا أنّه نبّه على مصلحة الأوّل ومفسدة الثّاني في قوله : "إنّ الطّعام يقوّي شهوة النّهم".

وفي كلام بعضهم ما يقتضي أنّ المراد بالأعمال الطّاعات والمعاصي؛ قال : «وإنّ النّفس أشهى للمعاصي، بل تنفر بطبعها عن الطّاعات، فما أحقّ العاقل بتحفّظها».

قال : «وقوله : "وَإِنَ هِيَ اسْتَحْلَت المَرْعَى.." إلى آخره؛ ظاهره أنّه أراد إنْ تمادت على الطّاعة، وتركتْ المعصة، فلا تَمَلْ».

ثمّ قال : «إنْ أراد أنّ النّفس تجد حقيقة استحلاء الطّاعة حتّى لا تحسّ مرارة الصّبر على ملازمة العبادة، فهذه درجة لا يلحقها إلاّ الأنبياء أو واحد من آلاف، وإنْ أراد بالاستحلاء ملازمة الطّاعة بلا التذاذ بها مع الصّبر على ثقل العبادة، فهذا صالح الإرادة، فإنّه قد يوجد في أولياء الله تعالى، وقليل ما هم». انتهى.

قلتُ : فإذا كان يأمر هنا بالتوسّط، فكيف يصحّ قوله قبلُ : إنْ استحلَتْ النّفس الطّاعة فلا تَمَلْ؛ لأنّ هذا يقتضي طلب الاستكثار والدّوام. اللّهمّ إلاّ أنْ يُقال : أمر بالتوسّط ما لم تَسْتَحلِ، فإذا استحلَتْ نهى عن المَلَل. إلاّ أنّه خلاف ما ذُكر أنّه سنّة سيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وأمّا قوله : "إنّه كان عمله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توسّطا". بل يُقال إنّه كان في الغاية القصوى من الجدّ[1]، وكذا سنّة المرسلين –صلوات الله عليهم أجمعين –. قال الله تعالى لموسى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[2]. و ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[3]. و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا..﴾ الآية[4]. ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾[5]. وفي المتّقين : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[6]. و ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[7].

---

(1) أقول : لعل الإمام ابن مرزوق – رحمه الله – يقصد أن ذلك كان شأنه صلى الله عليه وسلم في خاصّه نفسه، أمّا في حقّ أمّته فقد كان مثالا للوسطية.

(2) سورة الأعراف : من الآية 145.

(3) سورة مريم : من الآية 12.

(4) سورة المزمل : الآيتان 1 و 2. ويقصد الآيات وليس الآية، وهي بتمامها : ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.

(5) سورة هود : من الآية 112.

(6) سورة الذاريات : من الآية 17.

(7) سورة السجدة : من الآية 16.

ورُوينا في الصّحيح أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقوم في الصّلاة حتّى تتفطّر - أو تتورّم - قدماه، فيُقال له : أتفعلْ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، فيقول : «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1].

ورُوينا فيه أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يواصل، فقيل له : إنّك تنهانا عن الوصال، وأنتَ تواصل. فقال : «**إِنّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكم، إِنِّى أَبِيتُ يُطْعِمُنِى رَبِّى وَيَسْقِينِى**»[2].

ورُوينا فيه أيضاً عن عائشة - رضي الله عنها - سُئلت عن عمله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت : «أَيُّكُمْ يُطِيقُه، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً»[3]. «وَكَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ»[4]. وهذا المعنى في الصّحيح وغيره أكثر مِن أنْ يحصى. وأمّا تركه للطيّبات والاستلذاذ بها، واقتصاده العيش - وهذا في الدّنيا، وابتغاء ما عند الله تعالى - فجارٍ مجرى الضّروريات.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه البخاري عَنْ أَبي هرَيْرَةَ مرفوعا في الصوم. بَاب التَّنْكِيلِ لِمَنْ أَكْثَرَ الوِصَالَ.

(3) رواه البخاري عَنْ عَنْ عَلْقَمَةَ في الصوم. بَاب هَلْ يَخُصُّ شَيْئًا مِنْ الْأَيَّامِ. ورواه غيره.

(4) رواه مسلم في صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا. بَاب جَامِعِ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَمَنْ نَامَ عَنْهُ أَوْ مَرِضَ.

[أقوال في معنى الأبيات]

وممّا قِيل في معنى البيت الأوّل ما تقدّم من قول الجنيد : «إِذَا خَالَفَتْ النَّفْسُ هَوَاهَا صَارَ دَاءُهَا دَوَاءُهَا»[1].

وقال بعض الحكماء : «يَا بُنَيّ اعْصِ هَوَاكَ وَالنِّسَاءَ، وَأَطِعْ مَا شِئْتَ». ويُروى : وَاصْنَعْ مَا شِئْتَ[2].

وقال بعضهم : «الْعَقْلُ صَدِيقٌ مَقْطُوعٌ، وَالْهَوَى عَدُوٌّ مَتْبُوعٌ»[3].

وقيل : «أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ مَنْ رَفَضَ دُنْيَاهُ»[4]. وقيل[5] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى ... إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

وقيل[6] :

---

(1) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 284/1.

(2) انظر الآداب الشرعية. ابن مفلح : 131/3. وقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : لَوْ قَالَ اعْصِ الْهَوَى لَاكْتَفَى.

(3) انظر أدب الدنيا والدين. ابن أبي الدنيا : 29/1.

(4) انظر أدب الدنيا والدين. ابن أبي الدنيا : 30/1.

(5) القائل هو هشام بن عبد الملك، وقال الهدادي : لم يقل هشام شعراً إلاّ هذا البيت. انظر الفاضل. المبرد : ص 123.

(6) هذا البيت ينقله الكتاب ولايذكرون قائله، ولكن شطره الأوّل ينقل من قول أبي تمام، وقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ونصه :

نون الهوان من الهوى مسروقةٌ ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

ومثله : نون الهوانِ منَ الهوى مسروقةٌ ... وحليفُ كل هوىً حليفُ هوان

انظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 9/ 483.

نُونُ الْهَوَانِ مِنْ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ وَصَرِيعُ كُلِّ هَوًى صَرِيعُ هَوَانِ

وفي معنى قوله : "وَرَاعِهَا" إلى "سَائِمَة" قوله[1] :

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذْ كَانَتْ مُصَرَّفَةً إلَّا التَّنَقُّلُ مِنْ حَالٍ إلَى حَالِ

وفي معنى "فإن هي استحلَت.." البيت. إذ معنى "لا تُسِمِ" : لا تمكّنها ممّا استحلَتْ، وهي شهوتها[2] :

كَـمْ مِـنْ عَزِيـزٍ قَـدْ رَأَيْـ ـتَ الْحِرْصَ صَيَّرَهُ ذَلِيلَا[3]

يـا رُبَّ شَـهْوة سَـاعةٍ قـد أورثـتْ حُزنـاً طـويلا

وقيل[4] : «الحرّيةُ في رَفْضِ الشَّهَوَاتِ».

وقيل[5] : «النّفوسُ الرّوحَانيةُ تَترُكُ الشّهَوات البَهيميّة طَبعًا لاَ خَوفًا، إذَا كانتْ الشّهْوةُ فَوقَ القُدرَةِ، كَانَ هلاكُ النّفسِ دُون بُلوغِ الشّهْوَةِ».

---

(1) القائل هو أبو العتاهية. انظر البيت في العمدة في محاسن الشعر وآدابه. ابن رشيق القيرواني : 105/2.

(2) قائل هذين البيتين هو أبو العتاهية.

(3) أسقط ابن مرزوق بعد هذا البيت بيتا، ونصه :

فتجنَّب الشَّهوات واحـ ـذر أن تكون لها قتيلا

انظر الأبيات في الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 4/ 391.

(4) القول منسوب للحسن، وهو بتمامه كما يلي : «مكتوب في التوراة خمسة أحرف؛ إنّ الغنى في القناعة، وإنّ السلامة في العزلة، وإنّ الحرية في رفض الشهوات، وإنّ المحبة في ترك الرغبة، وإنّ التمتع في أيام طويلة في الصبر في أيام قليلة». انظر تهذيب الأسرار في أصول التصوف. عبد الملك بن محمد الخركوشي : ص 153.

(5) القائل هو أرسطاطاليس. انظر مرآة الزمان في تواريخ الأعيان. سبط ابن الجوزي : 401/2.

وقال[1] :

خَفْ اللهَ وَاحْذَرْ مِنْ عَوَاقِبِ شَهْوَةٍ مَسَـرَّتُهَا تَفْنَى وَيَبْقَـى لَـكَ الـوِزْرُ

وَلاَ تحتقـر ذَنْبًـا صَـغِيرًا تُضِـيفُهُ إِلَـى مِثْلِـهِ فَالسَّـيْلُ أَوَّلُـهُ قَطْـرُ

وهذا أيضاً في معنى قوله : "ما تولى".

وفي معنى قوله : "كَمْ حَسَّنَتْ.." البيت؛ قوله[2] :

غَلَبَتْ عَلَى أَلْبَابِهِمْ شَهَوَاتُهُمْ فَـأَرَتْهُمُ مَـا لاَ يَـزَينُ يَـزِينُ

وقال[3] :

كَـمْ شَـهَوَاتٍ سَـلَبْنَ صَـاحِبَهَا ثَـوْب الـدِّيَانَاتِ وَالمُـرُوَّاتِ

وَكَـمْ جَهُـولٍ تَـرَاهُ مُشْـتَرِيًا سُـرُورَ وَقْـتٍ بغـم أَوْقَـاتِ

كَـمْ شَـهْوَةٍ مُسْـتَقِرَّةٍ فرحـا قد انجَلَتْ عَنْ هُمُومِ آفَاتِ

وفي معنى قوله : "واخْشَ الدَّسَائِسَ"[4] :

العَاقِلُ يَشْتَهِي فَيَنْتَهِي وَيُبْصِرُ فيقصـر رأيـت تميّـز العَقْـلِ

مَـا حَسَّـنَ الهَـوَى قَبِيحًـا فأعقبت العُذُولِ مِنَ العَذْلِ

(1) سبق توثيق البيتين، ولم أقف على قائلهما.
(2) القائل هو ابن الرومي. انظر ديوانه : 4724.
(3) لم أقف على قائل الأبيات. وانظرها في الفيض الرحماني. الطهطاوي : ص 200.
(4) لم أقف على البيتين ولا على قائلهما في المصادر.

الوصل في قوله : "وحَاذِر" صادف المحز[1]، كأنّه يقول : اصرف هواها ابتداءً ودوامًا أو انتهاءً، وكذا "ورَاعِها"؛ أيْ ولا تغفل مع ذلك لئلاّ تقع فيما أُمِرت بصرفه عنها. وإسناد "تُوَالِيه"[2] الأوّل إلى المفعول حقيقة إنْ كان من الموالاة، وكذا إسناد "تُوَالِي"[3] إلى الفاعل. وإن كان من التّوْلِية فإسنادهما مجازيّ، لأنّ الهوى لا تصحّ ولايتُه حقيقة، لكنّه في الثّاني متمكّن؛ لأنّه ثبوت، وأمّا في الأوّل فالمعنى النّفي؛ أيْ لا تُوَلِّه، وإذا كان الإثبات مجازًا فسلبه حقيقة؛ لأنّ من علامة المجاز صحّة النّفي؛ فإذًا نفي الإثبات المجازيّ حقيقة.

وفي البيت الأوّل الإيجاز في "وحَاذِر أنْ تُوَلّيه"، لأنّ أصل الكلام ما قدّمنا في التّفسير، والأصل أيضاً : اصرف هواها عنها، وحَاذِر مِن أنْ تُوَلّيه عليها، فحُذف.

وفي قوله "إنّ الهَوَى" استئناف بياني؛ لأنّه جواب سؤال عن سبب خاص للحكم، كأنّه قيل : لم لا يُوَلِّي؟ ويشبه أيضاً أنْ يكون تذييلاً؛ من الجاري مجرّ المثل أو غيره، وإنّما عبّر بـ "حَاذِر" دون "احْذَر"؛ تنبيهًا على أنّ النّفس تراقب غفلة صاحبها عنها ليقع في هواها، فهي تُحاذره كما يُحاذرها. وتعريف "هَوَاهَا" بالإضافة؛ إمّا للاختصار، أو للتّنبيه على عظم ما يضاف للنّفس منه، لأنّها أمّارة.

---

(1) المحز : عبارة عن فعل الأمر على ما ينبغي ويليق.

(2) وهذا طبعا على الرواية الثانية.

(3) وهذا طبعا على الرواية الثانية.

وأوقع الظّاهر موقع المضمر في "إنّ الهَوَى" تفخيمًا لشأن الهوى المطلق، فكيف به إذا أضيف إلى النّفس. ويحتمل أن يكون جملة "إنّ الهَوَى.." اعتراضًا بين المتعاطفين؛ أعني "ورَاعِها" مع ما قبله؛ لإفادة الأخذ فيما أُمِر به بالجدّ. و «أل» في "الأعمال" للعهد، والمعهود شرعيّ؛ أيْ الطّاعات، إذ لا يُؤمر بمراعاتها حال العصيان، بل يزجرها، وتمامه قد مرّ، وتقديم المسند إليه في "وإنْ هِيَ" لإفادة تقوّي الحكم، و «أل» في "المَرْعَى" للجنس. وحذف مفعول "لا تُسِم"، إمّا للإيجاز، وإمّا للوزن، أو لهما.

والإسناد في "حَسَّنَت" يحتمل الحقيقة والمجاز. وتنكير "لذّة" للتّعظيم أو النّوعية. وتقديم "للمَرْء" على "قَاتِلة"؛ إنْ قلنا يتعلّق به للوزن. وقوله : "مِن حَيثُ.." البيت احتراس؛ لأنّه يُقال : كيف يتناول العاقل اللذّة القاتلة له؟ أم كيف يقبل تزيين النّفس إيّاها له؟

وفي البيت الرّابع البيان بعد الإجمال، فهو من الإطناب، لأنّه أجمل الدّسَائِس، وبيّنها بقوله "مِن جوع"، فهو شبه التّوشيع. والتّنكير في "مَخمَصة" مبني على معنى "رُبّ"، فإنْ كانت للتّنكير فهو أيضاً لذلك أو للتّعظيم، وإن كانت للتّقليل فهو له أو للتّعظيم، ويحتمل النّوعية في الوجهين. وجمع "التُّخَم" تنبيها على أنّ مخمصة واحدة قد تكون أشرّ من تُخَم متعدّدات، فما بالك بواحدة مِن التُّخَم أو متعدّد مِن هذه المخمصة.

قال بعضهم : «ولو قال : كم مخمصات أتت شرّا من التُّخم، أو ما يؤدّي هذا المعنى، لما كان مخطئًا».

اَلْبَيَانُ

في البيتين الأوّلين استعارة بالكناية؛ أمّا الأوّل فإنّه شبّه النّفس فيه بطالب للإمارة، وحذفه وأثبت من لوازمه الأمر بصرفه عن الولاية أو عدم التّولية، وأنّه جائر ظالم؛ لأنّه إنْ تولّى قتل أو عاب، فهي ترشيحيّة، لأنّها قُرنت بما يلازم المُستعار منه، وقد مرّ نظيرها غير مرّة، وهذا على رواية "تُوَلِّيَه"، وأمّا على رواية "تُوَالِيه" فلا مجاز فيه كما تقدّم، فتترجّح رواية "تُوَلِّيَه" لتحصيل هذه الاستعارة، فإنّ المجاز أبلغ من الحقيقة على ما تقرّر في علمي الأصول[1] والبيان[2]. وأمّا الثّاني فإنّه شبّه النّفس فيه بماشية، وأثبت من لوازمها المراعاة، على نظرٍ في اختصاص المراعاة بالماشية، وأثبت أيضاً من لوازمها السّوم والمَرعَى، وكذا قوله : "فلا تُسِم"، وهي من التّرشيحيّة، وكذا تشبيه الأعمال بالنّبات، إلاّ أنّه يحتمل أنْ يكون من الاستعارة المطلقة؛ لأنّه لم يُقرن بما يلائم المُستعار له ولا المُستعار منه، ويحتمل أنْ يُقال : إنّها من التّرشيحيّة؛ لأنّ إثبات الْإِسَامَة والمَرعَى ممّا يلائم النّبات، أو يُقال: استعار للنّفس وصف السّائمة، باعتبار انتقالها مِن عمل إلى عمل، كانتقال الماشية الرّاعية مِن كلأ إلى كلأ، ورشّح الاستعارة بذكر "اسْتَحْلَت المَرْعَى"، لأنّ ذلك بما يلائم المشبّه، ثمّ إنْ كان وجه التّشبيه بين الأعمال والنّبات التّناول، فهي من استعارة محسوس بمحسوس، وإن كان باعتبار ما ينشأ من زيادة الغذاء

---

(1) انظر مثلا إرشاد الفحول. الشوكاني : 76/1.

(2) قال ابن رشيق القيرواني: «والمجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع». انظر كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه : 266/1.

وجعل بعضهم قوله : "واخشَ" مجازًا؛ من إطلاق السّبب على المسبّب، والمراد اجتنبها؛ لأنّ الخشية سبب الاجتناب.

قلتُ : والظّاهر أنّه حقيقة؛ لأنّ الدّسائس خفيّة لا تظهر، فالمناسب الأمر بخشيتها، والأمر بالاجتناب إنّما يناسب ما كان ظاهرًا.

في قوله : "فاصْرِف هَوَاها.."البيت. مراعاة النّظير؛ لجمعه بين "الصّرف" و "التّولية"، وإيهام الطّباق؛ لأنّ لفظ "وحَاذِر" مثبت، ففيه إيهام إثبات التّولِيَة مِن حيث اللّفظ، وهو ضدّ الصّرف، لكن معناه النّفي، فلِذا لم يضاد "اصْرِف" معنىً. وفي "تُوَلّيه" و "تَوَلّى" على الرّوايتين التّكرار. وقوله : "إنّ الهَوى" من إرسال المثل، ومن حسن التّعليل، ومن الكلام الجامع. وفي قوله : "يُصْمِ أو يَصِمِ" نوعان من الجناس الشّبيه بالاشتقاق والمحرّف.

وفي قوله : "ورَاعِها.." البيت. مراعاة النّظير؛ لأنّ أكثر ألفاظه متناسبة على ما لا يخفى، والتّجنيس الشّبيه بالاشتقاق في "رَاعِها" و "المَرعَى"، أو هو من تجنيس الاشتقاق، وهو الظّاهر. وأمّا "سَائِمَة" "وتُسِم" فمن تجنيس الاشتقاق، وعلى ما شرح بعضهم فمن الشّبيه به[1]. وفي قوله : "رَاعِها" و "لا تُسِم" طباق، وكذا في "سَائِمة" و "لا تُسِم"، وفي "استَحْلَت" و "لا تُسِم"، وفي "سَائِمَة" و "استَحْلَت"؛ لأنّ معنى سَائِمة : غير عاكفة، واستَحْلَت : عَكَفَت.

وفي قوله : "كَمْ حَسَّنَتْ.." البيت. مراعاة النّظير لجمعه بين "التّحسين" و "اللّذّة" و "الدّسَم"، وبين "القتل" و "السُمّ". والطّباق في "اللّذّة" و "القتل"؛ لأنّه نهاية الألم. وفي "السُمّ" و "الدّسَم"؛ لضرر الأوّل ونفع الثّاني. وفي "حَسَّنَت"؛ لأنّه علم بتحسينها. و "لم يَدْرِ". وقوله

(1) يقصد من شرح "تُسِمِ" بتَسْأَم؛ أيْ من السأم والملل.

"السُمّ" و "الدّسَم" من التّجنيس النّاقص؛ لزيادة الدّال في "الدّسَم"، وقد مرّ تفسيره في البيت الأوّل، ويُسمّى أيضاً المُطرّف والمُردف.

قلتُ : ولو سمّى نحو قوله : "مِن حَيثُ لم يَدْرِ" تنبيه المخاطَب على خطأ في اعتقاده[1]، لكان لقبًا، كما قيل في قوله[2] :

إنَّ الَّـذِينَ تَـرَوْنَهُمْ إِخْـوَانَكم   يَشْفِي غَلِيلِ صُدُورهم أَنْ تُصْرَعُو

وجعل بعضهم قوله في البيت قبل هذا : "ورَاعِها" من التّورية.

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 42.

(2) البيت من قول عَبْدَة بْنِ الطبيب من قصيدة يَعِظُ فيها بَنِيه. انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 42.

[حقيقة التّورية]

وهو : «أَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ لَهُ مَعْنَيَان؛ قَرِيبٌ وَبَعِيدٌ، وَيُرَادُ البَعِيدُ»[1]. ثمّ إن قُرن بما يلائم القريب فمرشّحة، وإلاّ فمجرّدة.

"وَرَاعِهَا" معناه هنا حافظ، وهو بعيد، ومعناه القريب رعاية الماشية، وقُرن بما يلائمه، فهي مرشّحة.

قال : «ومن بديعها قول ابن الخطيب الأندلسي[2] يصف فرسًا :

....   لَوْ رَامَ بِهَا الشِّعْرِى لحقــا

أَوْ عَارَضَــهَا بــالبَرْقِ كَبَــا   أَوْ أَوْرَدَ عَـيْنَ الشَّـمْسِ سَـقَا[3]

فورّى بعين ماء تُسمّى عين الشّمس، وأراد معناها البعيد الّذي هو القرص، ورشّحها بأَوْرَدَ».

قلتُ : وليس في كلام النّاظم تورية، فإنّ معنى راعِها القريب ما أراده مِن الحفظ، ولو قيل إنّه في الماشية هو معناه البعيد ما أَبْعَدَ، وكذا لفظ ابن الخطيب بعيد من التّورية لقرينة "الشّعرى" و "البرق"، فمعنى عين الشّمس القريب هنا إنّما هو القرص. وقوله : رشّحها بِأَوْرَدَ. ظاهر

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 331.

(2) محمد بن عبد الله بن سعيد، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (713 - 776هـ= 1313 - 1374م). وزير مؤرخ أديب نبيل. كان أسلافه يعرفون ببني الوزير. ولد ونشأ بغرناطة. ومؤلفاته تقع في نحو ستين كتابا، منها (الاحاطة في تاريخ غرناطة). انظر الأعلام. الزركلي : 235/6.

(3) انظر البيتين في ديوانه. والبيت الأوّل بتمامه :

يعتد بها ملك شهــم   لو رام بها الشّعرى لحقا.

الضّمير في "رشّحها" عوده على القرص الّذي هو مراده عنده، وحينئذٍ لا يحسن أن يكون "أَوْرَدَ" ترشيحًا له، وإنّما يحسن أن يكون ترشيحًا لعين الماء الواردة، فكلامه متدافع كما ترى، فتأمّله.

وفي البيت الرّابع الطّباق في "جُوع" و "شِبع"، وفي "مَخمَصة" و"تُخَم". وفيه أيضاً اللفّ والنّشر.

[حقيقة اللفّ والنّشر]

وحقيقته : «ذِكْرُ مُتَعَدِّدٍ مُفَصَّلاً أَوْ مُجْمَلاً، ثُمَّ مَا لِكُلٍّ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ، ثِقَةً بِأَنَّ السَّامِعَ يَرُدُّهُ إِلَيْهِ»[1]. كقوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2]، وقوله[3] :

فعلُ المُدَامِ ولونُها ومَذَاقُها ... فـي مُقْلَتَيْـهِ وَوَجْنَتَيْـهِ وَريقـهِ

وله أقسام محلها علم البيان[4]، وهو هنا في ردّ "مَخمَصة" لـ "جُوع" و "تُخَم" لـ "شِبع". ولا يبعد أن يكون في هذا البيت مقابلة على

---

(1) انظر الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني : ص 333.

(2) سورة القصص : من الآية 73.

(3) القائل هو ابن حيّوس الدمشقي، وقال قبله:

ومهفهفٍ يغنى بلحظ جفونه ... عن كاسه الملأى وعن إبريقه

انظر نفح الطيب. المقري التلمساني : 107/2.

(4) اللّفُ والنّشر: هو فَنٌّ في المتعدّدات التي يتعلّق بكلّ واحِدٍ منها أَمْرٌ لاحق، فاللّف يُشار به إلى المتعدّد الذي يؤتى به أوّلاً، والنشر يُشار به إلى المتعدّد اللاّحق الذي يتعلّق كلُ واحد منه بواحد من السابق دون تعيين، وهو له نوعان؛ إمّا أن يأتي لَفُّهُ مُفَصّلاً، وإمّا أنْ يأْتِيَ لَفُّهُ مُجْمَلاً :

أولا – اللّف المفصّل: وله وجهان :

- الوجه الأوّل : أنْ يكونَ النَّشرُ فيه على ترتيب اللفّ. نحو قوله تعالى : ﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (73) سورة القصص. فقد جمعَ بين الليلِ والنهارِ ثمّ ذكر السُّكونَ لليلِ، وابتغاءَ الرزقِ للنهارِ، على الترتيبِ.
- الوجه الثاني : أنْ يكونَ النَّشرُ على خلافِ ترتيب اللفّ. نحو قوله تعالى : ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَاب وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ (12) سورة الإسراء، ذكر ابتغاءَ الفضلِ للثاني، وعلمَ الحساب للأولِ، على خلافِ الترتيب.

رأيْ الجميع؛ لاتّفاق "الجوع" و "الشّبع" في الدّسائس، و "المَخمَصة" و "التُّخَم" في الشرّ، لكن بشرط أن تجعل "التُّخَم" في مقابلة "الجُوع"، و "المَخمَصة" في مقابلة "الشِّبع"، ليحصل التقابل بين الأضداد، وأمّا تعدّد الأضداد في البيت الّذي قبل هذا فليس بمقابلة، إلاّ على رأيْ من رأى أنّها مقابلة ضدّين أو أكثر بمثلهما، سواء اشترك كلّ من المتقابلين في معنًى أو لا. وفي قوله : "ومِن شِبع" الرّجوع، وتقدّم تفسيره [1]، وبيانه هنا: أنّه لمّا قبّح الجوع أو حذّر منه، توهّم أنّ ضدّه - وهو الشّبع - ليس كذلك، فكرّ عليه بقوله : "ومن شِبع". ولمّا كان استقباح الجوع على خلاف المعهود، استدلّ عليه بقوله : "فرُبَّ مَخمَصة"، فهو من المذهب الكلامي، ولم يعتذر عن استقباح الشّبع، لأنّه معلوم.

ثانيا - اللّف المجمل: إذا جاء لفُّ المتعدّد مجملاً، فالنشر بعده مجرّد بيانٍ تفصيليّ للمجمل، ومن أمثلته : قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى وَقُومُواْ للهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَآ أَمِنتُمْ فاذكروا الله كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [الآيات: 238 - 239]. جاء اللَّفُّ المجمل في عبارة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خطاباً للمؤمنين حالة الحرب. وبعده جاء النشر المفصّل في عبارة ﴿فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾. انظر البلاغة العربية. عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني: 407/2.

(1) وذلك في شرح قول الناظم : مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أسمَعُهُ.

فإنْ قلتَ : فهو في موضع مفعول به، فأصحاب هذه الطّريقة يقولون إنّ لفظة "شرّ" في البيت صفة لمَخمَصة، ويقدّرون محذوفًا "حَدثَت" أو نحوه؛ هو العامل في "رُبّ" على مذهب سيبويه، أو خبر على مذهب الأخفش، و "مَخمَصة" في محلّ مبتدأ، ويحتمل مجرورها النّصب أيضاً عند الأخفش على هذا التّقدير.

قلتُ : وعلى مقتضى ما قال في "**التّسهيل**" : «ولا يلزم وصف مجرورها، خلافًا للمبرّد ومن وافقه»[1]، واستشهد على ذلك في "**شرحه**"[2] بما يطّلع عليه مَن إراده، تكون "مخمصة" على مذهب الأخفش مبتدأ، و "شرّ" خبرها، نحو قوله[3] :

إنْ يَقْتُلُوكَ فَإنَّ قَتْلَكَ لَمْ يَكُنْ ... عَـاراً عَلَيْكَ وَرُب قَتْلٍ عَـارُ

ف "عَار" خبر بنفسه، ولا حاجة إلى تقدير : هو عار، وهذا الإعراب في كلام النّاظم أسهل شيء وأوفقه لِما قصد، فتأمّله.

والجمهور أنّ "ربّ" حرف، وقال الكوفيون : اسم. وعزا ابن مالك لسيبويه أنّها حرف تكثير، والتّقليل بها نادر[4]. وخالفه غيره فعكس

(1) انظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. ابن مالك : ص 148.

(2) انظر كتابه شرح التسهيل : 175/3.

(3) هو ثابت قُطْنَة بن كَعْب العَتَكِيّ، وقاله في يزيد بن المهلب. انظر الدر الفريد وبيت القصيد. محمد بن أيدمر المستعصمي : 22/5.

(4) انظر شرح التسهيل. ابن مالك : 174/3.

النّقل عنه. وقيل إنّها للتّكثير دائمًا. وقيل إنّها للتّقليل دائمًا. وقيل تأتي لهما. واختلف في تعيين الأكثر، وفيها كلام كثير محلّه النّحو.

وعند بعضهم : أن "شرّ" هنا خبر مبتدأ ضاق المحلّ عن ذكره؛ أيْ: هي. قال : «ويجوز خفضه».

قلتُ : وليت شعري ما مذهبه في احتياج مجرورها إلى الوصف، واحتياجها إلى العامل، فإن كان كرأيْ الجمهور، فعلى تقدير رفع "شرّ" يحتاج إلى الوصف، وعلى تقدير خفضه يحتاج إلى العامل، وهذا أسهل؛ لأنّه ينذر، إلاّ أنّه لا يخفى ما فيه من التكلّف.

و"شرّ" و "خير" هما أَفْعُل تفضيل، أصلهما أشرّ وأخْيَر، غلب حذف همزتهما في التّفضيل، وقُرِئَ : ﴿ مَّنِ ٱلْكَذَّابُ الأَشَرُّ ﴾[1]. ونَدُر حذفها منهما في التعجّب.

ومِن التُّخم : متعلّق بـ "شرّ". و "مِن" هي المتّصلة بأَفْعُل التّفضيل، وتعلّق "مِن" بـ "شرّ" - سواءً رُفع أو خُفض - لا يجوز فيهما غير ذلك، ولِذا ترجّح رفع "شرّ".

---

(1) من الآية 26 من سورة القمر. وهي قراءة أبي حيوة. وقد خطّأة علماء القراءات في ذلك.

وقال سهل[1] : «مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيْءٍ مِثْل مُخَالَفَةِ النَّفْسِ وَالهَوَى»[2].

وقال مالك بن دينار[3] : «مَنْ غَلَبَ شَهَوات الدُّنْيَا، فَذَلكَ الّذِي يَفْرُقُ الشّيْطانُ مِنْ ظِلّه»[4]. وقيل لبعضهم : ألاَ تشتهي؟ فقال : «أَشْتَهِي أَنْ لاَ أَشْتَهِي»[5]. ويُحكى أنّ أبا الْخَيْرِ الْعَسْقَلاَنِيَّ[6] اشْتَهَى السَّمَكَ سِنِينَ، ثمّ تَأَتّى له من حلال، فلمّا مدّ يده إليه أخذت شوكةٌ يدَه، فذهبَت فيها، فقال : «يَا رَبّ، هَذَا لِمَنْ مَدَّ يَدَهُ لِشَهْوَةٍ حَلاَلٍ، فَكَيْفَ بِشَهْوَةٍ حَرَامٍ»[7]. وعن إبراهيم الخواص[8] : «كُنتَ في جبلِ لِكام[9]، فَرَأيتُ رُمّانا فاشتهيتُه، فأخذتُ مِنهُ،

---

(1) أيْ سهل بن عبد الله التستري.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 284/1.

(3) هو مالك بن دينار البصري، أبويحيى (.. - 131هـ = .. - 748م). من رواة الحديث. كان ورعا، توفي في البصرة. انظر الأعلام. الزركلي : 260/5.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 273/1.

(5) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 273/1.

(6) هو أبو الخير العسقلاني، من صلحاء القرن الرابع الهجري، دخل بغداد وأقام بها مدة، وصحب المشايخ الذين كانوا في ذلك الوقت، وذهب إلى قرية من قرى بغداد، وتزوج ومات بها. انظر نفحات الأنس من حضرات القدس. نور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي : 314/1.

(7) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 272/1.

(8) هو أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الخواص من أقران الجنيد والنُّوري، وله في التوكل والرياضات حظٌّ كبير. مات بالري سنة : إحدى وتسعين ومائتين. كان مبطوناً؛ فكان كلما قام توضأ، وعاد إلى المسجد، وصلى ركعتين، فدخل مرّة الماء فمات. انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 104/1.

(9) جبال اللكام هي : كتلة جبلية على الساحل السوري؛ وهي جبال قادمة من داخل تركيا متجهة نحو الجنوب الغربي، لتعبر الحدود السورية التركية.

فَوَجدتُه حَامضًا، فتركتُه، فَرأيتُ رجلاً مَطروحًا وعليهِ الزّنابيرُ، فقلت: السّلامُ عَلَيكَ». فقال: «وَعَليكَ السّلاَمُ يَا إبْراهِيمُ». فقلتُ: «كَيفَ عَرفتَنِي؟» فقال: «مَنْ عَرَفَ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ». فقلتُ: «لَكَ حَالٌ مَعَ اللهِ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ صَرْفَ الزّنَابِيرَ عَنْكَ؟» فقال: «وَأَنْتَ لَكَ حَالٌ مَعَهُ، فَلَوْ سَأَلْتَهُ صَرْفَ شَهْوَةَ الرُّمَّانِ عَنْكَ؟ فَإِنَّ لَدْغَ الرُّمَّانِ فِي الآخِرَةِ، وَلَدْغَ الزَّنَابِيرِ فِي الدُّنْيَا»[1].

قلتُ: مصداقُه: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2].

وأوحى الله تعالى إلى داود - عليه السلام -: «حَذِّرْ أَصْحَابَكَ أَكْلَ الشّهَواتِ، فَإِنَّ القُلُوب المُعَلّقَةَ بِشَهَوَات الدّنْيَا عُقُولُهَا عَنّي مَحْجُوبَة»[3].

ورُؤي رجل في الهواء، فقيل: بِمَ نِلْتَ هَذَا؟ فَقَال: «تَرَكْتُ الهَوَى، فَسُخِّرَ لِي الهَوَاءُ»[4].

وقيل: «لَوْ عُرِضَ للمُؤمنِ أَلْفُ شَهْوَةٍ لأَخْرَجَهَا بِالخَوْفِ، وَلَو عُرِضَتْ للفَاجِرِ شَهْوَةٌ وَاحِدَةٌ لأَخْرَجَتْهُ مِنَ الخَوْفِ»[5].

وقيل: «لاَ تَضَعْ زِمَامَكَ فِي يَدِ الهَوَى، فَإِنّهُ يَقُودُكَ إِلَى الظّلْمَةِ»[6].

---

(1) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 285/1.

(2) سورة التكاثر: الآية 8.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 286/1.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 286/1.

(5) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 286/1.

(6) انظر الرسالة القشيرية. القشيري: 286/1.

وقال ابن أَسْبَاط[1] : «لاَ تُمْحَى الشَّهَوَاتُ مِنَ القَلْب إلاَّ مِنْ قِبَلِ خَوْفٍ مُزْعِجٍ أَوْ شَوْقٍ مُقْلِقٍ»[2]. وقال الخوّاص : «مَنْ تَرَكَ شَهْوَةً، فَلَمْ يَجِدْ عِوَضَهَا فِي قَلْبِهِ، فَهُوَ كَاذِب فِي تَرْكِهَا»[3].

(1) هو يوسف بن أسباط الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم. نزل قرية بن حلب وانطاكية. مات سنة خمس وتسعين ومائة. انظر حلية الأولياء. أبو نعيم : 237/8.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 287/1.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 287/1.

[حمل النفس على ما تكرهه]

وأمّا قوله : "وَرَاءِها.." البيت؛ فإنّه لمّا أمر بصرف هواها، لم يبق ما يستعمل فيه إلاّ ما يكرهه بالطّبع، وذلك العبادات لِما فيها من الكَلَف، فأمر بمراعاتها طالما هي آخذة من جميعها، ومنتقلة من نوع منها إلى آخر، كالغنم السّائمة في أنواع الكلأ، فإنْ استحلَت معنًى منها، ومالت إليه بطبعها، فاعلم أنّ لها فيه غرضًا، وعادت به إلى هواها المكروه، فينبغي أنْ لا تُترَك عليه؛ لأنّ كلّ ما تهواه تصرف عنه، فإنّ قهْرها في ذلك، ولا تُغالِطك بأنّ هذه عبادة، فدعني وإيّاها، فإنّ ذلك مكرٌ :

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذا كَانَتْ مُصَرَّفَةً إلاّ التنقّل مِنْ حَالٍ إِلى حَالِ[1]

ألاَ ترى الترفّع عمّا في أيدي النّاس قد حثّ الشّارع - صلوات الله وسلامه عليه - عليه؛ روينا منه في الصّحيح قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»[2]. و : «**لأَنْ يَأْخُذَ أحدُكم حَبْلَهُ فَيَحْتَطِب خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا؛ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ**»[3]. وقوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للّذي بايعه وأسرّ إليه كلمةً[4] : «**لاَ تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا**»[5].

---

(1) البيت لأبي العتاهية. وسبق توثيقه.

(2) رواه البخاري عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ مرفوعا في الزكاة. بَاب لاَ صَدَقَةَ إِلَّا عَنْ ظَهْرِ غِنًى.

(3) رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ مرفوعا في الزكاة. بَاب الِاسْتِعْفَافِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ.

(4) هو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي ذرّ رضي الله عنه مرفوعا : 105/5. الحديث رقم: 3157.

ثمّ إنّ القشيري حكى بسنده عن عِصَامَ بْنَ يُوسُفَ الْبَلْخِيّ[1] أنّه وجّه شيئاً إلى حَاتِمِ الْأَصَمّ[2]، فقبله. فقيل له : لم قبِلتَه؟ فقال : «وَجَدْتُ فِي أَخْذِهِ ذُلِّي وَعِزَّهُ، وَفِي رَدِّي عِزِّي وَذُلَّهُ؛ فَاخْتَرْت عِزَّهُ عَلَى عِزِّي وَذُلِّي عَلَى ذُلِّهِ»[3]. وإنّما فعل هذا - رضي الله عنه - هَضْمًا للنّفس.

ويحتمل كلام النّاظم وجهًا آخر؛ وهو إنّما أمر بمراعاة النّفس في ابتداء أمرها وحال ثقل العبادة عليها خوف أنْ لا تنفلت، فإنْ تمكّنت لها حلاوة الطّاعة واستلذاذها بالمداومة عليها، وصار لها أمرا معروفا وإلفًا مألوفًا، فحينئذٍ لا تُسِمها؛ أيْ لا تدعها.

ولقد حكى لي بعض أشياخنا - رحمهم الله ورضي عنهم، وقد كان يصوم نحو أربعين سنة - أنّه قال يومًا : لقد خِفتُ أنْ لاَ أؤجَرَ علَى هَذَا الصَّوْمِ؛ لِما أَنّي لاَ أَجِدُ فِيه كُلْفَة، وأَتَكرّه الفِطرَ، كَمَا يُتَكَرَّه الصَّوْمُ.

وقال بعضهم : «إنّما قال تعالى : ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾[4]، ولم يقل صَبورًا؛ لأنّه لم يكن في جميع أحواله الصّبر، بل كان

(1) هو عصام بن يوسف بن ميمون بن قدامة البلخي، وكان صاحب حديث ثبتًا في الرواية وربّما أخطأ، ومات ببلخ سنة خمس عشرة ومائتين. انظر ميزان الاعتدال. الذهبي : 67/3.

(2) هو حاتم بن عنوان، أبو عبد الرحمن، المعروف بالأصم (.. - 237هـ= .. - 851م). زاهد، اشتهر بالورع والتقشف. له كلام مدون في الزهد والحكم. من أهل بلخ. زار بغداد واجتمع بأحمد بن حنبل. وشهد بعض معارك الفتوح. مات بواشجرد. انظر الأعلام. الزركلي : 152/2.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 286/1.

(4) سورة ص : من الآية 44.

في بعض أحواله يستلذّ البلاءَ ويستعذبه، فَلم يكن في حال الاستلذاذ صابرًا، فلِذا لم يقل صبورًا». والحكايات في هذا المعنى كثيرة.

فإنْ قلتَ : فقوله : "كَمْ حَسَّنَت" على هذا التّفسير؛ على أيْ شيء استشهد به؟ قلتُ : على بعض الأحوال الّتي أمر بمراعاتها فيها، ثمّ هذا البيت إشارة إلى أنّها لا تتابع فيما حَسَّنَت، فإنّ المطلوب من العبد ترك الاختيار، والرضا بما وردت به الأقدار، فربّما حَسَّنَت النّفس للمتسبّب ترك الأسباب، والتجرّد للتّوجّه إلى عبادة ربِّ الأرباب، وهذا وإن كان حَسنًا، إلاّ أنّها قد لا تصطبر على مشقّة التّجريد، فقد يكون لها مع الأسباب حال، فيختل عليها، وكذا إن كان مجرّدًا، فتُزيّنُ له السّعي في تحصيل الأسباب، لينال بها ما عند الله - تعالى - من الأجر والثّواب، وهذا مقصدٌ جميلٌ، إلاّ أنّه قد لا تجد إلى التوصّل إليه على وجهه مِن سبيل. وإلى هذا أشار الإمام ابن عطاء الله الاسكندراني رحمه الله[1] بقوله في كتابه "**الحِكَم**": «إرَادَتُكَ التَّجرِيدَ، مَعَ إقَامَةِ اللهِ إِيَّاكَ فِي الأَسْبَاب، مِن الشَّهْوَةِ الخَفِيَّةِ، وإرَادَتُكَ الأسْبَاب، مَعَ إقَامَةِ اللهِ إِيَّاكَ فِي التَّجْرِيدِ، انْحِطَاطٌ عَنْ الهِمَّةِ العَلِيَّةِ»[2].

وبالجملة : مَقَامُكَ حَيثُ أَقَامَكَ؛ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾[3].

(1) هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله (.. - 709هـ= .. - 1309م). متصوف شاذلي، من العلماء. له تصانيف منها (الحكم العطائية). توفي بالقاهرة. انظر الأعلام. الزركلي : 221/1.

(2) انظر الحكم العطائية بشرح ابن عباد النفري الرندي : ص 92 .

(3) سورة الشورى : من الآية 27.

وقال أبو سليمان[1] : «إِذَا سَلاَ العَبْدُ عَنِ الشَّهَوَاتِ فَهُوَ رَاضٍ»[2].

ويؤيّد أنّ المراد بقوله : "وإنْ هِيَ اسْتَحْلَت المَرْعَى"؛ أيْ الطّاعات. "فلا تُسِمِ"؛ أيْ فلا تتركها لرعايتها. وأنّ قوله : "كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً.." البيت؛ شاهدٌ على ذلك، ما حكى القشيريّ في باب الرّضا عن الواسطي[3] أنّه قال : «إِيّاكُمْ وَاسْتِحْلاَءَ الطَّاعَات، فَإِنّهَا سُمُومٌ قَاتِلَةٌ»[4].

وقيلَ : قال الشّبلي[5] - بين يَدَي الجنيد - : «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيّ العَظِيمِ». فقال الجُنَيد : «قَوْلُكَ هَذَا ضِيقُ صَدْرٍ، وَضِيقُ الصَّدْرِ تَرْكُ الرِّضَا بِالقَضَاءِ»[6].

---

(1) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي أبو سليمان الداراني (..- 215هـ=..- 830م). زاهد مشهور، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد. انظر الأعلام. الزركلي : 293/3.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 343/2.

(3) هو محمد بن موسى الواسطي أبو بكر (..- 331هـ=..- 942م). متصوف، من كبار أتباع (الجنيد). فرغاني الأصل. من أهل واسط. دخل خراسان، وأقام بمرو فمات بها. انظر الأعلام. الزركلي : 117/7.

(4) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 343/2.

(5) هو أبو بكر بن جحدر الشبلي، بغداديُّ المولد والمنشأ. وأصله من أُسرَّ وشنْة. صحب الجنيد ومن في عصره، وكان شيخ وقته : حالاً، وظرفاً، وعلماً. مالكي المذهب. عاش سبعاً وثمانين سنة، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. وقبره ببغداد. انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 116/1.

(6) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 344/2.

المعين على ترك شهوة النفس]

وأمّا قوله : "واخْشَ الدّواخِل.." البيت، فهو يحقّق ما قدّمنا في قوله : "إنّ الطّعام يقوّي.."، أنّه إنّما أشار به إلى أنّ المعِين على ترك شهوة النّفس هو الجوع، وذكرنا بعض فضائله هناك، وأشار هنا إلى أنّ الجوع، وإن كان معِينا على ترك شهوة النّفس، فإنّه يتّقي دَسَائِسه كما يتّقي دَسَائِس الشّبع الظّاهرة، وربّما كانت دَسِيسَة أشدّ الجوع أشرّ من دَسِيسَة ما هو أكثر الشبع، وهو التُّخم، هذا مع أنّ الدّاراني[1] يقول : «مِفْتَاحُ الدُّنْيَا الشِّبَعُ، وَمِفْتَاحُ الآخِرَةِ الْجُوعُ»[2].

وقال يحيى بن معاذ : «الْجُوعُ نُورٌ، وَالشِّبَعُ نَارٌ، والشَّهْوَةُ مِثْلُ الحَطَب يَتَوَلَّدُ مِنْهُ الإِحْرَاقُ، وَلاَ تَنْطَفِئُ نَارُهُ حتّى يُحْرِقَ صَاحِبَهُ». ويُروى: «تُحْرِقَ صَاحِبَهَا»[3].

لكن إنْ كان الجائع يجوّع نفسَه ليظهر للنّاس فيه أثر العبادة، فيجدّ فيهم، فمخمصة شرّ مِن تخمة؛ لأنّ مفسدة تخمته قد لا تعود عليه إلاّ في الدّنيا، ومفسدة مخمصته في الآخرة، وشتّان ما بينهما.

نسأل الله تعالى السّلامة والعصمة من كلّ شيء في الدّنيا والآخرة.

---

(1) هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي. أبو سليمان الداراني (..- 215 ه =..- 830م). زاهد مشهور، من أهل داريا (بغوطة دمشق) رحل إلى بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد. انظر الأعلام. الزركلي : 293/3.

(2) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 272/1.

(3) انظر الرسالة القشيرية. القشيري : 272/1.

المحارم : جمع مُحَرَّم؛ وهي الحَرَام، والحِرمة ما لا يحلّ انتهاكه، وكذا المَحْرَمَةُ، بفتح الرّاء وضمّها. والحَرامُ : ضدُّ الحلال. وكذا الحِرْمُ – بالكسر –، وقد يقال : حَرَم؛ كزَمَن وزمان، ومَحارِمُ اللّيل : مخاوِفه الّتي يَحْرُمُ على الجبانِ أنْ يسلكَها. الأصمعيّ : «يقال : إنَّ لي مَحْرُماتٍ فلا تهتِكْها». واحدتها مَحْرَمَةٌ ومَحْرُمَةٌ. والإِحْرامُ والتَّحْريمُ ضدّ التّحليل، وحَرُمَ الشّيءُ حُرْمَةً وحُرْمًا، وحَرِمَ – بالكسر – لغةٌ، وحَرَمَهُ يَحْرِمُهُ حَرِماً، كسَرَقَه سَرِقًا – بكسر الرّاء –، وحِرْمَة وحَرِيمَة وحِرْمَان، والحَرِمُ – بكسر الرّاء – : الحِرمانُ. وأحْرَمَ الرّجلُ : دخل في الإِحْرَام. وكذا: في حُرْمَةٍ لا تُهْتَكُ[1].

حِمْيَة : مِن حَمَيْتُ المريضَ الطعامَ حِمْيَةً وحِمْوَةً، وقيل : حُمْوَةً – بالضمّ –؛ إذا منعته منه لِئلاّ يضرّه، وكذا غير الطّعام. واحْتَمَيْتُه احْتِماءً، وحَمَيْتُه حِمَايَة : دفعت عنه. وشيء حِمَى : محظور لا يُقرب. وأَحْمَيْتُ المكان : جعلته حِمَى. وسمع الكسائي في تثنيته حَمَوَان، قال : «والوجه حَمَيَان». وحَمِيُّ الدَّبْرِ، فَعِيل بمعنى مَفْعُول، وهو عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه[2].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1895/5. مادة حرم.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 2319/6. مادة حمى.

وعاصم بن ثابت هو بن أبي الأقلح الانصاري ، أبو سليمان (...– 4هـ = ...– 625م). صحابي، من السابقين الأولين من الأنصار. شهد بدرا وأحدا. واستشهد يوم الرجيع، ورثاه حسان بن ثابت. انظر الأعلام. الزركلي: 248/3.

[مذاهب العلماء في وجود الجنّ والشّياطين]

واختُلف في الجنّ والشّياطين - على القول بوجودهما، وهو مذهب أهل الحقّ - هل هما نوع واحد؟ أو الشّياطين متمرّدة الجنّ؟ ثمّ قال المتكلّمون : إنّها أجسام لطيفة قادرة على التّشكّل. والفلاسفة وأوائل المعتزلة[1] أنكروها، قالوا : لأنّها إن كانت بلطافة الهواء لم تقْوَ على شيء من الأفعال، ويُفسد تركيبَها أدنى سبب، وإن كثُفت وجب رؤيتها، وإلاّ كانت بحضرتنا خيالاً لا نراها[2].

والجواب : لِم لا تكون لطافتها عدم الوزن لا رقة القوام، سلَّمنا، لكن الإبصار غير واجب، فإنْ لم يخلقه الله تعالى لم يكن.

وزعمت الفلاسفة أنّ الشّياطين لا متحيّزة، ولا قائمة بمتحيّز، وأكثرهم على أنّها مخالفة بالنّوع لأرواح البشر. ومنهم من يقول : الأرواح إذا فارقت أبدانها، وكانت شرّيرة، كانت شديدة الانجذاب إلى ما يشاكلها من النّفوس البشرية، فتتعلّق بأبدانها ضربًا من التعلّق، وتُعاوِنُها على الشرّ، وهو الشّيطان، وإن كانت خيّرة، فالأمر بالعكس[3].

والمعصية : ضدّ الطّاعة، وتقدّم تفسيرهما، وتفسير **المحض**، **والنّصح**، **والتّهمة**.

---

(1) في كتاب "نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد" : أوائل الفلاسفة والمعتزلة.
(2) انظر "نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد". أبو العباس البسيلي : 219/1.
(3) انظر كتاب "نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد". أبو العباس البسيلي : 219/1.

ويقال : طَاع وأَطَاعَ؛ أيْ انْقَاد. وأَطَاعَ؛ أيْ اتّبع الأمر، ولم يُخالفه[1].

والخَصْم : معروف، يقع على الواحد والاثنين والجمع مذكّرًا ومؤنّثًا؛ لأنّه في الأصل مصدر. خَصِمَ فهو خَصِمٌ – بكسرهما -؛ أيْ كثير الجدال، وقد يُثنّى ويُجمع، قال تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾[2]. والخَصِيمُ : الخَصْمُ، وجمعه خُصَماءُ. وخاصَمْتُهُ خِصَاماً ومُخاصَمَةً، والاسم الخُصومَةُ. وخاصَمْتُه فَخَصَمْتُهُ أَخْصِمُهُ – بالكسر – ، وهو شاذٌّ، ولا يُضمّ، والقياس في مضارع المقابلة مِن مثله الضَمُّ، ومنه قرأ حَمزة[3] : ﴿يَخْصِمُونَ﴾[4]. واخْتَصَمَ القوم وتَخاصَمُوا، بمعنىً. والسّيفُ يخْتَصِمُ جَفْنَه؛ إذا أكَله من حِدّته[5].

والحَكَم : بالتّحريك : الحَاكِمُ. وفي المثل : "في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ". وحَكَمَ بينهم حُكْمًا؛ أيْ قضى. وحَكَمَ له وعليه. وحَكَمْتُ

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1255/3. مادة طوع.

(2) سورة الحج : من الآية 19.

(3) هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، التيمي، الزيات (80 – 156هـ= 700 – 773م). أحد القراء السبعة. وكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان (في أواخر سواد العراق مما يلي بلاد الجبل) ويجلب الجبن والجوز إلى الكوفة. ومات بحلوان. كان عالما بالقراآت، انعقد الاجماع على تلقي قراءته بالقبول. انظر الأعلام. الزركلي : 277/2.

(4) سورة يس : من الآية 49.

(5) انظر الصحاح. الجوهري : 1912/5. مادة خصم.

السّفيه وأَحْكَمْتُهُ؛ أيْ أخذتُ على يده. وحَكَّمْتُهُ في مالي : جعلتُ له الحُكْمَ فيه. فاحْتَكَمَ عَلَيَّ في ذلك. واحْتَكَمُوا إلى الحَاكِمِ وتَحَاكَمُوا بمعنىً. والمُحاكَمَةُ : المخاصَمَة. وسُمّي الخوارج مُحَكِّمَة؛ لإنكارهم أمر الحَكَمَيْن وقولهم : لا حُكم إلاّ لله[1].

والكيد : المكر، كادَهُ يَكيدَهَ كَيْداً ومَكيدَةً ومُكايَدَةً. وربَّما سُمِّي الحرب كَيْداً. ومنه غزا فلان فلم يَلْقَ كَيْداً. وكلُّ شيءٍ تعالجه فأنتَ تَكِيدُهُ. ويَكيدُ بنفسه : يجود بها. ويُسمَّى اجتهادُ الغراب في صياحه كَيْداً، وكذا القَيْءُ[2].

---

(1) انظر الصحاح. الجوهري : 1901/5. مادة حكم. والحكمان هما: عمرو بن العاص رضي الله عنه المفاوض من قبل جيش معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه المفاوض من قبل جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) انظر الصحاح. الجوهري : 533/2. مادة كيد.

غير إضافة المنع إلى النّدم -؛ لأنّ الامتناع منها قد يكون لمصلحة بدنيّة، أو قصد التّحصيل ما هو أعظم منها، أو لوجوه شتّى غير ما يحمل عليه خوفُ عقاب الله تعالى، وهذا كلّه مِن حين المعصية، ومعظم التوبة - أو هو حقيقتها - : «النّدم على ما فات مِن رعاية حقوق الله تعالى، وعلى الوقوع في المعصية مِن حيثُ هي معصية، لا من حيثية أخرى»[1]. وهذا مقرّر في علم الفقه وغيره.

وقيل : إنّما قال : "حِمية النّدم"؛ لأنّ الاحتماء من الطّعام قد يكون قبل أن يضرّ، وقد يكون بعد مضرّة استعماله، وهذا النّوع من الاحتماء آكد من الأوّل.

قال بعضهم : «معنى "امْتَلَأَتْ مِنَ المَحَارِمِ"؛ أيْ لم يبق لها من المرئيات المحرّمة نوع إلاّ نظرت إليه، ولا يتخيّل امتلاء العين إلاّ هكذا».

قلتُ : لا يصحّ الحصر، بل يُتخيَّل امتلاؤها مِن نوع واحد مِن المحرّمات، بل هذا شرح بالمستحيل إن لم يُدَّعَ الإيغال، فإنّ ممّا حُرِّم النّظر إليه النّساءُ الأجنبيات، فكيف يمكن الإحاطة ببعض البعض منهن، فكيف بكلّهنّ، فكيف بكلّ ما يحرم النّظر فيه.

---

(1) انظر مثل هذا التعريف للتوبة في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الهروي القاري: 1637/4.

ثمّ قال : «والأمر في قوله : "وَاسْتَفْرِغْ" للإرشاد؛ نحو : ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ﴾[1]؛ لأنّه في هذا المقام كالمُفتي، وأمره لذلك، إذ ليس له الإيجاب».

قلتُ : بل أمر المفتي فيما هو متعلّق الوجوب للوجوب، لأنّ طاعته واجبة، لقوله تعالى : ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[2]. وقوله تعالى : ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[3]. والسّؤال قد يكون عن واجب، ولو لم يجب العمل به، لم يكن في الأمر بالسّؤال فائدة[4]. وأمّا الأمر هنا إن كان معنى اسْتَفْعِل فِي "اسْتَفْرِغ" الطّلب، لم يبعد الوجوب، ومنه قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا»[5]. وطلب البكاء؛ باستدعاء مقدّماته وأسبابه مقدورٌ، وكذا إن كان هذا الأمر كناية عن ملازمة حال الباكي. وإن كان "استَفْعِل" بمعنى المجرّد من السّين والتاء؛ نحو استَغْنَى بمعنى غَنِي، حتّى يكون اسْتَفْرِغ بمعنى أَفْرِغ، فإنْ

---

(1) سورة البقرة : من الآية 282.

(2) سورة النساء : من الآية 59.

(3) سورة النحل : من الآية 43.

(4) يظهر لي أن اعتراض الإمام ابن مرزوق على القائل في غير محله؛ لأنّه لم يفهم قصده، والقائل يقصد بقوله: "إذ ليس له الإيجاب"؛ أيْ ليس له الإلزام كالقاضي، وهو محقّ في ذلك.

(5) رواه بان ماجه عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه مرفوعا في الزهد. بَاب الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ. ورواه غيره. وإسناده ضعيف.

أراد المجاز - كما ذكرنا - فهو للوجوب، وإن أراد حقيقته فهو للوجوب باعتبار قومٍ، وللنّدب باعتبار آخرين.

لا يُقال : فيه استعمال اللّفظ في حقيقته ومجازه[1] على هذا التّقدير، أو المشترك في معنَيَيه[2]، وهو غير جائز. لأنّا نقول : في جوازه خلاف، والمانعون منهم من لا يمنع استعمال ذلك مجازًا.

---

(1) اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ مِثْلَ أَنْ يُطْلِقَ النِّكَاحَ، وَيُرِيدَ بِهِ الْعَقْدَ وَالْوَطْءَ جَمِيعًا، فِيهِ مَذَاهِبُ :

أَحَدُهَا : وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَجُمْهُورِ أَصْحَابِهِ؛ وهو جَوَازُ إرَادَةِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ؛ لأن التَّعْمِيمُ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ أَقْرَبُ مِنْهُ بَيْنَ حَقِيقَتَيْنِ.

وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي : وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ، وَاخْتَارَهُ بعض الشافعية، وهو عدم جَوَازُ إرَادَةِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ أَصْلٌ وَالْمَجَازَ مُسْتَعَارٌ، فَلَا يُتَصَوَّرُ اجْتِمَاعُهُمَا كَمَا لَا يُتَصَوَّرُ كَوْنُ الثَّوْبِ عَلَى اللَّابِسِ مِلْكًا وَعَارِيَّةً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ. انظر البحر المحيط. الزركشي : 399/2 و 400. انظر إرشاد الفحول. الشوكاني : 80/1.

(2) قال الزركشي : مَعَانِي الْمُشْتَرَكِ؛ إمَّا أَنْ يَمْتَنِعَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا كَالضِّدَّيْنِ وَالنَّقِيضَيْنِ، فَلَا يُحْمَلُ عَلَى مَعْنَيَيْهِ قَطْعًا.. وحُكي عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِهِ مَعْنَيَاهُ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ، وَهُوَ غَرِيبٌ.. وَمِثَالُ الضِّدَّيْنِ: صِيغَةُ "افْعَلْ" عِنْدَ مَنْ يَجْعَلُهَا حَقِيقَةً فِي الطَّلَبِ وَفِي التَّهْدِيدِ، فَإِنَّهَا مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ، لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، وَلَا الْحَمْلُ عَلَيْهِمَا، وَلِهَذَا لَوْ قَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ وَنَوَى الطَّلَاقَ وَالظِّهَارَ لَمْ يَثْبُتَا، لِأَنَّهُمَا وَإِنْ اشْتَرَكَا فِي التَّحْرِيمِ لَكِنْ بَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ، لِأَنَّ الطَّلَاقَ يَفُكُّ قَيْدَ الزَّوْجِيَّةِ بِخِلَافِ الظِّهَارِ.

وَأَمَّا إذَا أَمْكَنَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ تَكَلَّمَ بِهِ مَرَّاتٍ جَازَ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ غَيْرَ مَا اسْتَعْمَلَهُ فِي الْأُخْرَى، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِيمَا إذَا تَكَلَّمَ بِهِ مَرَّةً وَاحِدَةً. وعندها نكون أمام ثَلَاثَةِ أوجه هي : اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ، وَفِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ، وَفِي مَجَازَيْهِ. وفي هذه الأوجه تفاصيل تنظر في مظانها في كتب الأصول. انظر البحر المحيط. الزركشي : 384/2 و 385. وانظر إرشاد الفحول. الشوكاني : 79/1.

وقوله : "وَخَالِفِ النَّفْسَ.." البيت؛ لمّا أمره بالمبادرة إلى الطّاعة والتزام النّدم على ما فات مِن العصيان، نبّه الآن على أنّه إنْ فعل ذلك، فقد خالف النّفس والشّيطان، فلِذا أمر بمخالفتهما؛ أيْ بادِرْ إلى التّوبة، وخالِفْ النّفس والشّيطان فيما يدعوانك إليه من التّمادي على الغيّ أو إلى ما يدخلان في العبادة من فساد النّيات، كما أشار إليه فيما تقدّم.

وقوله : "واعْصِهِمَا" تنبيهٌ على أنّه لا يُكتفي بمخالفتهما، بل لا بدّ مِن عصيانهما، بأنْ يتلبّس بضدّ ما أمراه، لأنّه قد يُخالف ما أمراه به إلى غيره ممّا يرضيان به. وقال بعضهم : «يحتمل أنْ يريد: خالِفهما في المكروه والمحرّم معًا، واعصهما في المحرّم، فيكون من عطف الخاص على العام للاهتمام». فتأمّله. ثمّ قال : «"وإنْ هُما محّضَاكَ النّصحَ فاتَّهِم"؛ أيْ إن أخلصتْ لك النّفس - أو الشّيطان - النّصيحة فيما أبدياه لك، كأن تقول لك النّفسُ : متّعنِي بهذه الشّهوة؛ لكي أَتَمَلّأ منها، ثمّ أتوجّهُ إلى الطّاعة فارغةَ السرّ؛ لأخذي حظّي مِن شهوتي، وإلاّ إنْ حَملتنِي على الطّاعة، ولمّا أقضي وطرِي مِن شهوتِي، أبقَى معلّقةَ البال بها، فلا تخلُص لي عبادة. أو تقول لمن نوى الجدّ في العبادة : اربع على نفسك لتدوم عبادتُك، وإلاّ نفرَتْ نفسُك، فلا تقدر أنْ تأتي بشيء منها. أو تقول : كثّر بشيء من العبادة؛ لتفوز بالدّرجات العُلى. أو تقول: إنّ الله غنيّ عنك وعن عبادتك، فحافظ على أصل الإيمان ويكفيك. أو تقول للمنهمك في العصيان : إنّك قد اجترمت أمورًا عظامًا لا تُقبل لك معها توبة، فاربحي دنياك، فليس لك في الآخرة نصيب، ونحو هذا. أو يكون المورد لهذه الوجوه كلّها الشّيطان، فاتّهم قائل ذلك مِن كلّ منهما، ولا تثق به ولا بنصيحته».

[أوجه مكائد النّفس]

ولتعلم أنّ كيدها في : **الوجه الأوّل** : أن تمكّنها من شهواتها حتّى تستحلاها، فيعسُر إقلاعها.

وفي الثّاني : تأنس التّقليل وتركَ الشّيء بعد الشّيء إلى أن تنقطع العبادة بالكلية.

وفي الثّالث : استعمال أسباب الملل حتّى تترك العبادة دفعةً لثقلها، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ.. فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»[1]. «**وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ**»[2]. أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

وفي الرّابع : الأمن؛ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[3].

وفي الخامس : القُنُوط من رحمة الله؛ ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[4]. و : ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[5].

وبالجملة لا طاعة لهما في ورد ولا صدر.

---

(1) رواه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مرفوعا في جُمَّاع أَبْوَاب صَلَاةِ التَّطَوُّعِ، وَقِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ. بَاب الْقَصْدِ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْجُهْدِ فِي الْمُدَاوَمَةِ. ورواه غيره. والحديث حسن.

(2) هو جزء من حديث رواه البخاري عَنْ أَبِي هرَيْرَةَ رضي الله عنه مرفوعا في الإيمان. بَاب الدِّينُ يُسْرٌ. ورواه غيره.

(3) سورة الأعراف : من الآية 99.

(4) سورة الحجر : من الآية 56.

(5) سورة يوسف : من الآية 87.

[عدم طاعة النفس والشيطان على كل حال]

قوله : "وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْمًا وَلاَ حَكَمًا"؛ أيْ لا تُطع منهما لا في ابتداء الأمر؛ كما إذا راودك أحدهما على الإقدام على المعصية؛ وهذه هي صورة كون أحدهما خصمًا، فإنّه حينئذٍ يُزيّن القدوم عليها، والمأمور بدفع ذلك لِما يُعلم من سوء العاقبة، فهما خصمان يُدلي أحدهما بحجّة، ويدفع الآخر، ولا بعد تمكّن الاشتغال بالمعاصي، وهذه هي صورة كون أحدهما حَكَما، وذلك إذا استولى سلطان أحدهما، فالمكلّف يريد التنصّل، والنّفس والشّيطان يزيّن له البقاء والتّسويف وطول الأمل، ويمنّيه بالإسعاف بالتّرك المرّة بعد المرّة، ويضرب له أجلاً بعد آخر، فعل الحكّام فيما يقطعون به الحقوق، والأمراء فيما يعِدُون بإعطائه، ويعتلّ له بأن سلطاني استولى عليك، فلا يمكنك مخالفتي، ولا الخروج عن طاعتي، وهذا لسان حال استحلاء المعصية، فقد ظهر أنّه أراد بالخَصم والحَكَم كلّ واحد منهما. وقوله على هذا : "فأنت تعرفُ كيدَ الخَصمِ والحَكَمِ"؛ أيْ فأنت تعرف كيد النّفس والشّيطان؛ اللّذين يكون كلّ منهما خَصمًا مرّة وحَكمًا أخرى.

ويحتمل أن يريد الخَصْم بالإطلاق والحكَم الّذي له شهوة في خلاف ما يريد المحكوم عليه؛ يعني فإنّ الخصم أبدًا ذو كيد واجتهاد في تحصيل مطلوبه وخيبة خَصمه، والحاكم المائل عن الحق أشدّ كيدًا في تحصيل غرضه، وأقوى فعلاً مِن الخَصم، فإنّ هذا الحَاكم خَصْم، وهو مع كونه خَصْمًا يُنفِذُ الحُكمَ، فكانت نتيجة حيلته أسرع وأنفذ، والخَصْم الّذي ليس بحَاكم حظّه استعمال الحيل، ويقف تمام

اللهِ، وإذَا قَدَرَ عَفَا وَكَفَّ»[1]. وقيل له : أيْ الجهاد أفضل؟ قال : «جِهَادُكَ هَوَاكَ»[2]. وفي الحديث المرفوع : «**جَاهِدُوا أَهْوَاءَكُم كَمَا تُجَاهِدُونَ أَعْدَاءَكُمْ**»[3].

وقال عبد الله بن المقفع[4] : «إِذَا عَرَضَ لَكَ أَبَدا أَمرَانِ، لَم تَدرِ أَيّهمَا أَصوَبُ، فَانظر أَيّهُمَا أَقرَب إِلَى هَوَاكَ فَخَالفهُ، فَإِنَّ أَكثَر الصَّوَاب في خِلاَفِ الهَوَى»[5].

قال الشّاعر[6] :

إذا حارَ وَهْمُكَ في مَعْنَيَيْن ... وأعياكَ حيثُ الهُدى والصَّوابُ

فخَالِفْ هَوَاكَ فإنَّ الهوَى ... يَقودُ النَّفوسَ إلى مَا يُعَابُ

---

(1) انظر القول في الكامل. ابن المبرد : 99/1.

(2) انظر القول في الكامل. ابن المبرد : 124/1.

(3) أورده الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه "ميزان العمل"، ولم أقف عليه مسندا. وتنسب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر شرح نهج البلاغة. بن أبي الحديد : 314/20.

(4) هو عبد الله بن المقفع (106-142هـ= 724-759م). من أئمة الكتاب، أول من عني بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، وولد في العراق مجوسيا، وأسلم على يد عيسى ابن علي (عم السفاح) وولي كتابة ديوان المنصور العباسي. انظر الأعلام. الزركلي 140/4.

(5) ذكره ابن المقفع في كتابه "الأدب الكبير والأدب الصغير" تحت ترجمة : المستشار ليس بضامن وجه الصواب. ولكن القول مشهور عن عتبة بن أبي سفيان. انظر المستطرف في كل فن مستظرف. شهاب الدين الأبشيهي : 15/2.

(6) البيتان للإمام الشافعي أو لِسَهْلٍ الْوَرَّاقِ. انظر الآداب الشرعية. ابن مفلح : 132/3.

وأمّا الشّواهد على مخالفة الشّيطان، فأكثر من أنْ تُحصى، وكفى بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1].

---

(1) سورة فاطر : الآية 6.

لا يُفرض إلاّ كما تُفرض المحالات، فإنّ النّصح لا يُتصوّر من جهتهما. وليس قوله : "هما" مِن تقديم المسند إليه، حتّى يكون تقديمه لإفادة تَقَوّي الحكم والاختصاص؛ لأنّه فاعل بفعل محذوف، دلّ عليه الظّاهر، لأنّ "إنْ" لا يليها إلاّ الفعل، فلمّا حذف الفعل، انفصل الضّمير، اللّهم إلاّ على رأيْ الكوفيين الذّاهبين إلى أنّه مبتدأ، فنعم[1]، وإذا عرفت أنّه فاعل، علمتَ أنّه لا فرق بين : "وإنْ محّضاكَ" وبين "وإنْ هما محّضاكَ".

وقال بعضهم : «"إنْ هُمَا مَحَّضَاكَ"؛ لو قال : "إنْ محّضَاكَ النّصح فاتّهم"، كانت "إنْ" غائية؛ لمنافرة الشّرط الجزاء، فإنّ محْض النّصح يوجبُ أن لا يُتّهم، فلمّا حذف الفعل، وأولى "هما" إن كان إشارة إلى أنّ الخبث منهما لا من غيرهما إنْ محّضه، فناسب الشّرط، وهو ذاتاهما الجواب، وصارت "إنْ" شرطية لا غائية، ومثله : ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾[2]؛ أيْ ذاتكم مجبولة على الإمساك، ف "لو" شرطية، ولو جاء : لَو مَلَكْتُمْ أَمْسَكْتُمْ. كانت غائية».

قلتُ : أمّا ما ذكره من فائدة "إنْ هُمَا مَحَّضَاكَ" فصحيحٌ على رأيْ الكوفيين، وأمّا على رأيْ البصريين فقد علمتَ ما فيه، لكنّ الزّمخشري قرّر ذلك في الآية على تقدير كونه فاعلاً، وقد علمتَ ما فيه، وفي كلام الزّمخشري تدافع، فإنّه جعل "أنتم" تأكيدًا

---

(1) سبق توثيق المسألة عند إعراب قول الناظم : "وإن هي استحت..".

(2) سورة الإسراء : من الآية 100.

للمتّصل في الفعل المقدّر، وهو "تَمْلِكُونَ"، ولازمه أنْ تكون رتبته التّأخير كسائر المؤكّدات، فإذًا لا يكون من التّقديم المفيد ما ذُكر، إلاّ أنّه قال : «أتى به في صورة المبتدأ والخبر»[1]. فهو يقتضي إفادة ذلك صورةً لا تحقيقًا. وأمّا ما ذُكر من أنّ "إنْ" غائية إنْ قيل محتال، وشرطية مع "إنْ هما"، فلا محصول له، لأنّها إن كانت "إنْ" غائية، ففيهما، أو شرطية فكذلك؛ لِما قرّرنا من أنّه لا يتحقّق في الغائية إلاّ الشّرطية.

وقال أيضاً : «إنّما قال : "وإنْ هما" لضرورة الوزن».

قلتُ : لا ضرورة فيه مع "إنْ"، بخلاف غيرها من أدوات الشّرط. قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾[2].

و «أل» في "النّصح" إمّا للحقيقة أو للمبالغة؛ أيْ الكامل.

فإنْ قلتَ : قوله : "ولا تُطع" تأكيد؛ إذْ يغني عنه قوله : "واعْصِهما".

قلتُ : أمّا عند من يرى إلى أنّ الأمر بالشّيء ليس عين النّهي عن ضدّه ولا يتضمّنه، فليس بتأكيد. وأمّا على مذهب من يرى أنّه يتضمّنه، فالمطابقة أولى من التضمّن، وأمّا على مذهب من يرى أنّه عينه، ففائدته إفادة عموم المعصية في جميع الأحوال، فإنّ قوله :

(1) انظر الكشاف. الزمخشري : 651/2.

(2) سورة التوبة : من الآية 6.

"اعْصِهما" فعلٌ مثبت، وهو لا يدل على العموم في أقسامه على الصّحيح، بل هو مطلق[1].

وقوله : "لا تُطِع" نهيٌ، والنّهي نفي، والفعل المنفيّ يعمّ على الصّحيح[2]، لا سِيَّما وقد ذكر متعلّق النّهي في قوله : "خَصْمًا وَلاَ حَكَمًا". وأيضاً اختُلف في الأمر؛ هل يدلّ على التّكرار أو المرّة؟[3] وهل يقتضي الفور أو التّراخي؟[4] ولم

(1) ذهب الجمهور من أهل الأصول، من الحنفية والشافعية والمحدثين إلى أنّ الشيء المعين إذا أمر به، كان ذلك الأمر به نهيًا عن الشيء المعين المضاد له. وقيل : ليس نهيًا عن الضدّ ولا يقتضيه عقلًا، واختاره الجويني والغزالي وابن الحاجب. انظر إرشاد الفحول. الشوكاني : 263/1.

(2) لِأَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الْمَصْدَرِ دَلَالَةَ تَضَمُّنٍ، وَالْمَصْدَرُ نَكِرَةٌ، فَإِذَا وَقَعَ الْفِعْلُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، تَحَقَّقَ وُقُوعُ النَّكِرَةِ فِي سِيَاقِهِ، فَتَعُمُّ. انظر حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع. العطار : 19/2.

(3) ذهب جماعة من المحققين إلى أنّ صيغة الأمر باعتبار الهيئة الخاصة موضوعة لمطلق الطلب، من غير إشعار بالوحدة والكثرة، واختاره الحنفية، والآمدي، وابن الحاجب، والجويني، والبيضاوي. وقال جماعة : إنّ صيغة الأمر تقتضي المرة الواحدة لفظًا، وعزاه الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني إلى أكثر الشافعية. انظر إرشاد الفحول. الشوكاني : 256/1.

(4) اختلف في الأمر هل يقتضي الفور أم لا؟ فالقائلون إنه يقتضي التكرار يقولون : بأنّه يقتضي الفور؛ لأنه يلزم القول بذلك ممّا لزمهم من استغراق الأوقات بالفعل المأمور على ما مر. وأمّا مَن عداهم فيقولون : المأمور به لا يخلو إمّا أن يكون مقيدًا بوقت يفوت الأداء بفواته، أو لا، وعلى الثاني يكون لمجرّد الطلب، فيجوز التأخير على وجه لا يفوت المأمور به، وهذا هو الصحيح عند الحنفية، وعُزي إلى الشافعي وأصحابه، واختاره الرازي والآمدي وابن الحاجب والبيضاوي. انظر إرشاد الفحول. الشوكاني : 259/1.

يُختلف أنّ النّهي يفيد التّكرار والفور، ولو سكت عنه واقتصر على "واعْصِهما" لاحتمل الخروج من العهدة بمرّة، أو لا تجب المبادرة.

فإنْ قلتَ : فلِم لَم يقتصر على النّهي؟

قلتُ : لأنّ المختار أيضاً أنّه ليس عين الأمر، ولا يتضمّنه[1]، أو لأنّ المطابقة أولى، ومثل هذا البحث في قوله تعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]. ويقرب منه البحث في قوله[3] :

أقـولُ لـه ارحَـلْ لا تُقـيَمَّن عِنْدَنَا وإلاّ فكُنْ في السِّر والجَهرِ مُسلِما

وبالجملة لا يخلو الكلام من الإطناب.

وفي قوله : "خَصْمًا وَلاَ حَكَمًا" احتراس، فإنّه فسّر مَن نهى عن طاعته منهما بالخَصْم والحَكَم، وذلك حيث يكون كلّ منهما مريد المكر وهو الخَصْم المراد بقوله : "ورَاعِها". وتنكير "خَصْمًا" و "حَكَمًا" لتعظيم شأنهما في الشرّ، وتحقيرهما بالنّسبة إلى الطّاعة. وقدّم المسند إليه في قوله : "فَأَنْتَ" لإفادة تَقَوّي الحُكْم لا للاختصاص. فتأمّله. و «أل» في

---

(1) قال الزركشي : النَّهْيُ عَنْ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِضِدِّهِ إنْ كَانَ لَهُ ضِدٌّ وَاحِدٌ بِالِاتِّفَاقِ؛ كَالنَّهْيِ عَنْ الْحَرَكَةِ، يَكُونُ أَمْرًا بِالسُّكُونِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ أَضْدَادٌ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقِيلَ : نَفْسُ الْأَمْرِ بِضِدِّهِ كَمَا فِي جَانِبِ الْأَمْرِ.. وَقِيلَ : بَلْ ذَلِكَ فِي جَانِبِ الْأَمْرِ لَا النَّهْيِ، فَلَا يَجْرِي الْخِلَافُ فيه.. وَقَالَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ : الَّذِي ذَهَبَ إلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْأَصْحَابِ أَنَّ النَّهْيَ عَنْ الشَّيْءِ أَمْرٌ بِأَحَدِ أَضْدَادِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ جَمِيعِ أَضْدَادِ الْمَأْمُورِ بِهِ. انظر كتابه البحر المحيط : 359/3.

(2) سورة التحريم : من الآية 6.

(3) البيت لا يُعرف قائله. وانظره في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. أبو الفتح العباسي : 287/1.